

2271

504605

566

2271.504605.566

Badawi

Ma'mūn banī Ayyūb

DATE _____

ISSUED TO

DATE ISSUED

DATE DUE

DATE ISSUED

DATE DUE

Princeton University Library



32101 074446210

Badawi, Ahmed Ahmed

مأمون بن أيوب

Ma'mūn b. Ayyūb

المُعْظَم عَيْسَى

تأليف

أحمد عبدوي

مدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

ملتمزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عمارة الزين سابقا)

(صبحي وشركاه)

طبعة منشورات الديار المصرية

في شارع متقن دسلا كاسكو - القاهرة

2271
.504605
.566

SS

بسم الله الرحمن الرحيم

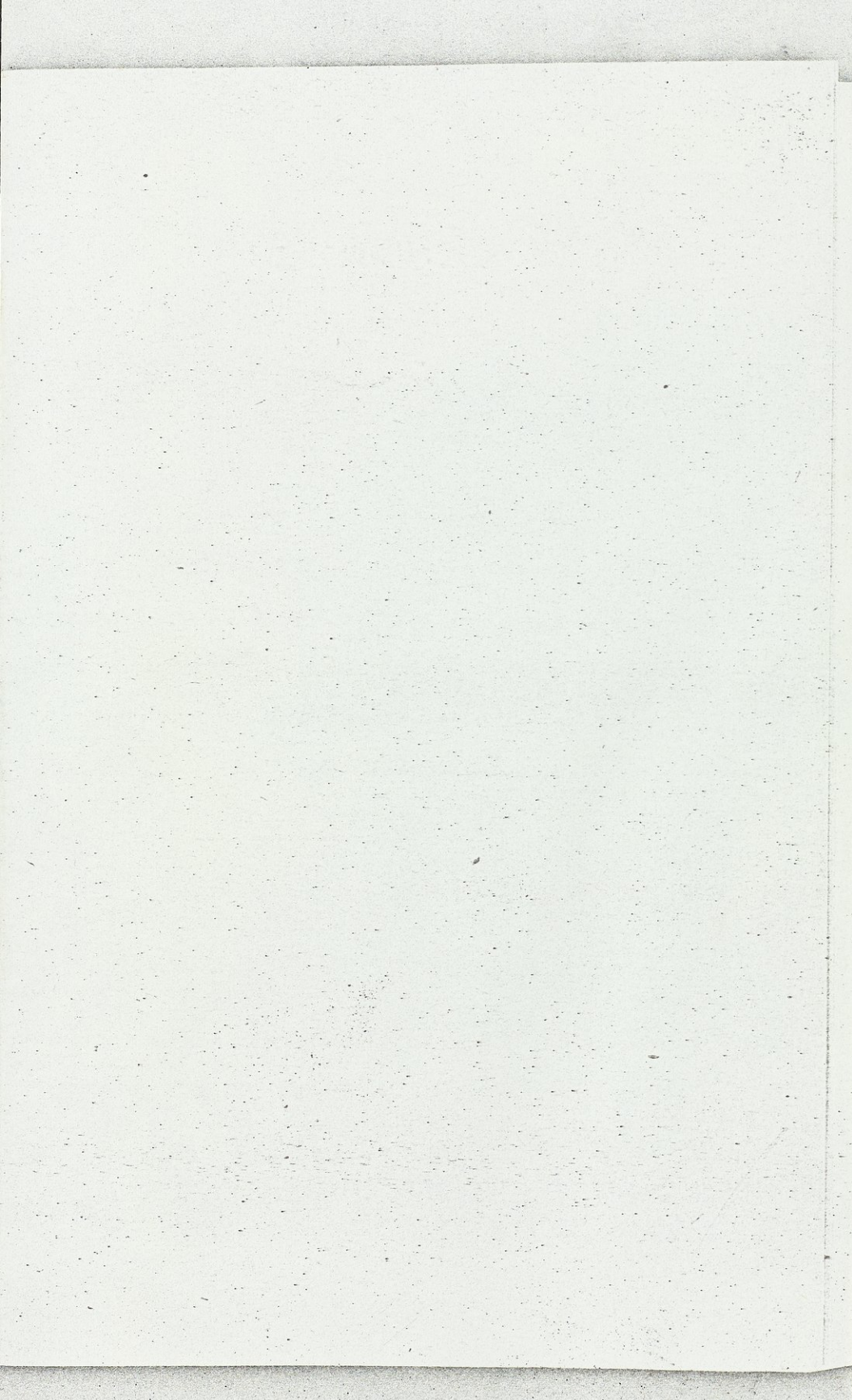
مقدمة

أعجبت ، وأنا أدرس عصر الحروب الصليبية ، بشخصية المظم عيسى بن الملك
المادل ، وزادني حباً لهذا الرجل ماله من صفات تجعله أثيراً لدى النفوس : من
ديمقراطية متأصلة في نفسه ، وحب للعلم وتشجيع لأهله ، وغرام بالأدب ،
ومساهمة في التأليف ، وكنت كلما ازددت اتصالاً به ، ازددت تقديرآ له ، وإعجاباً
به ، فأحببت أن أخصه يبحث يتناوله من جميع نواحيه ، وهأنذا أقدم ما استطعت
أن أصل إليه : من تاريخ حياة هذا الرجل ، وما اهتديت إليه : من أدبه وكتبه ،
راجياً أن أجلو بعض صفحات من حياة حاكم خدم الإسلام والعلم ، وكان له
في هذا المجال أطيب الآثار .

المؤلف

2271
504605
366

6.25.57 O.L.O.L.



الأسرة الأيوبية

في قبيلة كردية كانت تسكن بلدة « دوين » ، في آخر « أذربيجان » ، نشأ أيوب بن شاذي ، وأخوه شيركوه ، وقد قدم بهما والدهما إلى العراق ، والتحقا بخدمة مجاهد الدين بهروز متولي شحنة^(١) بغداد ، فرأى بهروز من نجم الدين أيوب رأياً وعقلاً ، فولاه « تكريت » ، وكانت إقطاعاً له ، فأقام بها نجم الدين ومعه أخوه أسد الدين شيركوه ، إلى أن انهزم الأتابك زنكي بن آق سنقر ، من الخليفة المسترشد العباسي ، سنة ٥٢٦ هـ ، ووصل إلى « تكريت » فأقام له نجم الدين المأوى على نهر دجلة ، فمير زنكي من هناك ، وبلغ نجم الدين في إكرامه ، فحفظ له زنكي هذا الجليل ، حتى إذا اضطر نجم الدين إلى الخروج من تكريت سنة ٥٣٢ هـ ، ففكر هو وأخوه في الذهاب إلى الموصل ، حيث عماد الدين زنكي ، فأحسن لقاءهما ، وأعطهما إقطاعات كثيرة ، وصارا من جملة أجناده ، وظلا في خدمته ، وخدمة ابنه من بعده : نور الدين محمود ، وأصبعا من أكابر امرائه . ولما اشتد التنافس بين نور الدين والصليبيين على امتلاك مصر اختار نور الدين لقيادة الحملة التي وجهها إلى مصر أسد الدين شيركوه ، فاستصحب هذا معه ابن أخيه : صلاح الدين ، وكانت الخلافة الفاطمية يومئذ تلفظ في مصر أنقاصها الأخيرة ، واستطاع شيركوه أن يلي الوزارة للمعاذ آخر خلفاء الفاطميين ، فلما مات حل صلاح الدين مكانه ، ولم يلبث هذا أن أسقط الخلافة الفاطمية ، وأعاد الدعوة فيها لبني العباسي ، على أنه تابع لنور الدين ، وعمل صلاح الدين منذ ذلك الحين على الاستقلال بمصر ، وصمم على أن يقوم بتنصيبه في حرب الفرنج منتصب

(١) الشحنة بكسر التين : من فيه الكفاية لضبط البلد من قبل السلطان : الشرطة.

ديار الإسلام ، وهيأت الظروف لصالح الدين أن يوحد تحت حكمه مصر والشام ، وأن ينقض بقوة الوحدة على الصليبيين ، فينتزع منهم ما اغتصبوه ، ويفتح بيت المقدس ، ويكاد يلقى بالفرج جيماً إلى البحر . وقد خلد له التاريخ هذا الجهاد الشاق ، وحفظ اسمه بين أسماء الأبطال الخالدين .

وقد عاون صلاح الدين في الحكم والجهاد أخوه المادل أبو بكر ، فكان له العضد والساعد ، والمستشار الأمين ، والمخلص في إبداء الرأي ، والموطد لعرش الأسرة في أرجاء هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، ينوب عن أخيه في الحكم إذا غاب ، ويقود معه الجيش في معارك القتال ، ويسود علاقة الأخوين الحب والصفاء والإخلاص . وبفضل هذا التعاون وما أظهره بقية أبناء الأسرة : من تضامن ، وتكاتف ، والتفاف حول صلاح الدين ، أسس عرش الأيوبيين بمصر والشام ، وتوطدت أركانه ؛ فقد استعان صلاح الدين ببني أسرته ، ووضعهم حكاماً في أنحاء إمبراطوريته ، فأخلصوا له وعاونوه .

فلما مات صلاح الدين دب الخلف بين أبنائه ، وعادى بعضهم بعضاً ، وتنازعوا أمرهم بينهم ، ففشلوا وذهبت ريحهم ، واستطاع المادل أن يستولى على مقاليد الأمور في إمبراطورية أخيه ، وكان المادل سياسياً محمكاً ، قديراً على تصريف الأمور ، وتدير شئون الدولة ، فأراد أن يعود بنيه الحكم ، وأن يسكن في الإرشاد والتوجيه ؛ فقسم مملكته بين بنيه ، فكانت مصر لابنه الكامل محمد ، والشام لابنه العظيم عيسى ، والشرق لابنه الأشرف موسى . وصار هو يتنقل بين البلاد ، وإذا حزب أمر كان رأيته في المشكلة مصباحهم الهادي .

ولم تكن الأسرة الأيوبية بتوطيد أساس مملكتها تحسب ، ولكنها عنت إلى جانب ذلك بنشر العلم وإذاعته في الناس ، فشيدوا المدارس في أرجاء الإمبراطورية ، واشترك في تشييدها أمراء الأسرة وسيداتها ، بل خدمها وعتقاؤها ، وبذلوا

للمعلماء وقربوهم إليهم ، ورجلواهم للاستماع لهم والأخذ عنهم ، ووسموا عليهم في الرزق ، وجلبوا إلى المعلماء الرحلة إليهم ، ولم يضنوا عليهم بمال ، فكان ذلك سبباً في نهضة علمية شاملة . وإذا كانت الفلسفة من بين العلوم هي التي لم ينلها التشجيع في عهد صلاح الدين ، فقد عاد إليها الازدهار في عهد المعظم بن العادل ، والناصر داود بن المعظم .

والثف حول أبناء الأسرة الأيوبية طائفة كبيرة من الشمرء ، وسجلوا أجدادهم ، وخلدوا ذكركم ، ونالوا خيرهم وبرهم ، وتشبه الأيوبيون في ذلك بالفاطميين الذين كانوا جالسين على عرش مصر من قبلهم .

ويذكر التاريخ لهذه الأسرة بلاءها الحسن في حرب الفرنج ، فقد حمل صلاح الدين راية الجهاد بيد قوية ، ومضى يحارب الصليبيين في غير رفق ولا هوادة ، حتى استرد معظم ما اغتصبوه ، ولم يبق في يدهم منه سوى القليل ، واتبع العادل سنة أخيه وإن لم تقع في عهده حروب كحروب الجبارة التي وقعت في عهد أخيه من قبل ، ويقال : إنه مات حسرة على سقوط برج دمياط في يد العدو ، سنة ٦١٤ هـ ، واجتمع بنوه من بعده على حرب الفرنج ، وتم لهم النصر المؤزر في دمياط ، وكان للمعظم عيسى دور في ذلك النصر العظيم .

مولده ونشأته

شهدت القاهرة عام ستة وسبعين وخمسةائة للهجرة (١١٨٠ م) مولد أحد أطفال العادل أبي بكر بن أيوب سمى : عيسى ، ولقب بالملك المعظم ، وكان ميلاده في قصر الزمرد أحد القصور الرائعة التي كانت للفاطميين ، وورثها عنهم الأيوبيون . ولسنا ندرى أطال مقامه بالقاهرة ، أم انتقل منها صغيراً إلى دمشق ، ولكن نشأته العلمية كانت بالشام ، على ما أرجح ، قرأ القرآن ، ودرس علوم

الأدب على أحد أعلام مصر ، وهو تاج الدين الكندي ، أخذ عنه كتاب سيمويه في النحو وشرحه للسيراني ، وكتاب الحماسة لأبي تمام ، كما تلقى عنه القراءات ، وقرأ عليه فيها كتاب الحجة لأبي علي الفارسي^١ . ودرس الحديث ، سمع فيه مسند أحمد بن حنبل ، على حنبل بن عبد الله . وتفقه على مذهب أبي حنيفة ، حفظ فيه السمودي ، واعتنى بالجامع الكبير ، وتلقى المذهب في أول الأمر على نحر الدين الفازي ، ثم على رجل من كبار رجاله ، وهو جمال الدين الحصري ، ولست أدري السبب الذي دفعه إلى اختيار مذهب أبي حنيفة ، والانصراف عن مذهب الشافعي الذي كان عليه أهل بيته جميعاً ، ولا يبين لنا السر في هذا الاختيار ما ذكره هو على سبيل الفكاهة ، عند ما سأله أبوه المادل في ذلك قائلاً : كيف اخترت مذهب أبي حنيفة ، وأهلك كلهم شافعية ؟ فأجاب أباه مداعباً : يا خوند^(١) ، أما ترضون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم ؟ وتعصب المظلم لمذهب أبي حنيفة تعصباً كبيراً ، فمن ذلك أنه عزل خطيب المسجد الأقصى وكان شافعيّاً ، وولى الخطابة رجلاً حنفيّاً ، وأمر المؤذنين ألا يؤذّنوا في تكبير الصلوات بالحرم إلا خلف الإمام الحنفي ، ليس غير . وبني بالحرم الشريف قبة وقف عليها وفقاً جليلاً ، على أن يدرس في تلك القبة الفقه والقراءات السبع ، وشرط ألا يصرف من وقفها شيء إلا للحنفية فقط . ولما وقف المظلم على تاريخ بغداد ، وفيه مطاعن على أبي حنيفة ، رواها الخطيب ، رد عليه الملك المظلم في ذلك ، وصنف كتاباً ، سماه : السهم المصيب في الرد على الخطيب ، سوف نتحدث عنه عند ذكر مؤلفاته .

وأراد المظلم أن يذل السبيل إلى معرفة مذهب أبي حنيفة ، فأمر الفقهاء أن يجرّموا له مذهبه دون صاحبيه ، فجرّدوا له المذهب في عشرة مجلدات ، وسماه :

(١) خوند : أمير ، ومنها (خان) .

التذكرة ، فكان لا يفارقه سقراً ولا حضراً ، وكتب على ظهر كل مجلدة : أنهاه حفظاً عيسى بن أبي بكر بن أيوب . قال سبط ابن الجوزى فى كتابه : صراة الزمان : فقلت له : ربما يؤخذ هذا عليك ؛ لأن أكبر مدرس بالشام يحفظ القدورى مع تفرغه ، وأنت مشغول بتدبير الممالك ، تكتب خطك على عشرة مجلدات أنك قد حفظتها ؛ فقال : ليس الاعتبار بالألفاظ ، وإنما الاعتبار بالمعنى ؛ فأسألونى عن جميع مسائلها ، فإن قصرت كان الصحيح معكم ، وإلا فسلموا إلى ما قلت .

وشارك هو نفسه فى التأليف فى الفقه على مذهب أبى حنيفة كما سنرى .

ومع ذلك أقر مخالفته لمذهبه عند ما رأى صواب الرأى فى هذه المخالفة ، روى صاحب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب أن المعظم قال لوالد سبط ابن الجوزى يوماً : أكان لمدينة المرأة سور ، فقال : نعم ، وإنما الفرنج لما ملكوا المرأة ، واستنفذوها منهم الشهيد أتابك بن سنقر ، هدم سورها . ثم ذكر له واقعة جميلة فعلها أتابك مع الممرتين ، وهى أنهم طلبوا منه أن يردّ عليهم أملاكهم التى كانت بأيديهم ، قبل أن يملكها الفرنج ، فرسم بردها إليهم ، فقال له بعض الفقهاء : إن من مذهب أبى حنيفة أن الكفار إذا أخذوا من المسلمين بلدة ، وفيها أملاك للمسلمين ملكوها ، وإذا فتح المسلمون تلك البلدة كانت الأملاك لبيت المال ، وحسّنوا للأتابك الاستيلاء على تلك الأملاك ، والأى ردها إلى ملاكها ؛ لأنه حقيق ؛ فقال أتابك الشهيد : لا ، والله . بل ردّها عليهم ؛ إذا كنا نحن نأخذ أملاكهم ، والإفرنج تأخذ أملاكهم ؛ فأى فرق بيننا وبين الإفرنج ؟ ! قال والد السبط بعد ذلك : لقد غلطت فى هذه الحكاية ؛ لأن المعظم حقيق ، وفى هذا القول تشنيع على أبى حنيفة ، ولكن السلطان تهاضى عن ذلك ، وأظهر استحسانه .

وربما كان من الأسباب التي دفعت المظم إلى اختيار مذهب أبي حنيفة والتعصب له ، هو ما يمتاز به هذا المذهب من اعتماده كثيراً على القياس ، وذلك يتناسب إلى مدى بعيد مع ما طبع عليه المظم من الحرية الفكرية .

وربما كان من الأسباب إباحة أبي حنيفة لشرب الأنبذة التي كان المظم مغرمًا بشربها ، فقد أباح أبو حنيفة شرب النبيذ مادام لم يسكر ، وقصر التحريم على الخمر والإسكار .

وأقبل المظم عيسى على التعلم ، لا يثنيه عنه شاغل مهم ، ولا يصرفه عنه سفر ولا جهاد . ذكر صاحب مفرج الكروب أنه وقف على نسخة من كتاب سيديوه ، وعليها خط المظم في عدة مواضع ، يقول في بعضها : أتممت هذا الكتاب مطالعة ومراجعة ، وأنا منازل لمدينة « أرسوف » ، وفي بعضها يقول : أتممته مطالعة ومراجعة ، وأنا بنايلس .

وعرف المظم للعلم قدره ، ولأهل العلم مقامهم ، روى مؤرخوه أنه كان يتردد على أستاذه : الحصري ، والكندى ، في أكثر الأوقات ، وكان يمشی من القلعة راجلاً إلى دار تاج الدين الكندى ، والكتاب تحت إبطه . وكان يجلس في تواضع بين تلامذة الكندى الذين يقرءون عليه ، من غير أن يمتاز عليهم في شيء ، بل كان ينتظر راضياً حتى يأتي دوره في القراءة على أستاذه .

ووجد لذته الكبرى في الجلوس مع العلماء ، والبحث معهم ، ومناقشتهم ، ولهم منه التبجيل والإكرام .

أساتذته وبطائنه

اشتهر من بين أساتذة المعظم أربعة كانوا من أشهر رجال عصرهم ، برع أحدهم في النحو ، وثانيهم في الفقه ، وثالثهم ورابعهم في الحديث .

أما الأول فتاج الدين الكندي الذي ولد ببغداد ، وتلقى بها ثقافته ، وظهر نبوغه في سن مبكرة : حفظ القرآن ، وقرأه بالقراءات العشر ، ودرس النحو واللغة والأدب والحديث والعروض والفقه ، وانتقل تاج الدين إلى دمشق ، وارتفعت منزلته فيها حتى استوزره أحد أمراءها .

ولكن تاج الدين شغل بالتعليم والإفادة أكثر مما شغل بالتأليف ، فلم يضع كتباً تناسب ما حازه من شهرة وبعد صوت ، فله حواش على شرح الواواء لديوان المتنبي ، وتعليقات على خطب ابن نباتة ، وكتاب سماه : تنف اللحية من ابن دحية ، رد فيه على ابن دحية السكبي في مسألة نحوية . ومات التاج في حياة المعظم عيسى ، وكان في حياته وبعد مماته ، وطن مدح الشعراء وتمجيدهم ، فمما مدح به قول الشاعر :

لدي باب الكندي : زيد أبي البر	ن ، إمام الأنام ، فرد الزمان
فمقول الأنام في الفهم عنه	ذات فقر للفضل والعرفان
هو بحر فيه نفيس لآل	وسواه كالآل عند العيان
صورة صورة من السؤدد المح	ض ، وطيب الأنفاس والإحسان
علم سيويوه منفرد فيه	ياسناده وبالإتقان
والتفسير ، والقراءات ، والتج	ويد فيها ، ومشكل القرآن
وحديث النبي ، والقول فيه	قوله في غريبه والبيان
والتواريخ ، والقوافي من الشم	نر ، وعلم العروض والأوزان
يقظ ، واسع المجال ، رجب الب	ناع فيما ينأى عن الأذهان

ومما رثى به قول ابن الساعاتى من قصيدة بدأها بقوله :

هوى قر المليات يا سارى الجنح فهبات أن تمحو الدجى آية الصبح
 كأن نجوم الأفق حيرى لفقده وقد عكفت حزان من الليل فى مسح
 وغاضت أهاضيب السماحة والندى وأخلافها^(١) ما إن تدثر على المسح
 مضى الحسب الكندى حال سبيله فلا أحد يرجى لمنع ولا منج

وأما الحصىرى فقد انتهت إليه رئاسة مذهب أبى حنيفة فى زمانه ، ولما دخل دمشق رحّب به المعظم ، وفوض إليه تدريس المدرسة النورية .

وعنى الحصىرى بالتأليف ، فشرح الجامع الكبير الذى ألفه صاحب أبى حنيفة : الإمام محمد بن الحسن الشيبانى — شرحين : أحدهما مختصر ، زاد فيه على ما فى الجامع زهاء ألف وستمائة وثلاثين مسألة ، وكثيراً من القواعد الحسابية ، وبالع فى الإيضاح بالنظائر والشواهد ، وإيراد الفروق بأوجز العبارات ، وهو فى مجلدين ، وتأنيهما المطول الذى بلغ فى الجمع والتحقيق الغاية ، وهو المسمى بالتحجير فى شرح الجامع الكبير^(٢) ، وهو فى ثمانى مجلدات ، ألفه حين قرأه عليه الملك المعظم . كما ألف للملك الناصر : داود بن المعظم ، وكان تلميذه أيضاً ، كتاب المطلوب فى العلم المرغوب ، وهو كتاب فى الفتاوى . وله الطريقة الحصىرية ، فى علم الخلاف بين الشافعية والحنفية^(٣) .

ويذكر مؤرخوه أنه كان من العلماء العاملين ، رقيق القلب ، كثير الصدقة ، نزيها عفيفاً ، كبير العقل ، عظيم الدين ، تبدو عليه الهيبة والوقار .

وأما الثالث فأبو على حنبل بن عبد الله بن الفرج ، سمع المسند فى بغداد ،

(١) أخلاف : جمع خلف وهو للثاقة كالضرع للشاة .

(٢) مخطوط بدار الكتب رقم ٩٩ فقه حنفى .

(٣) مخطوطة بدار الكتب رقم ٣٦٦ — أصول الفقه .

وكان بها فقيرا معدما ، فقيل له لو سافرت إلى الشام . . . فقدم إلى دمشق ، وألقى دروسه بالكلاسة ، وسمع المظم المسند منه في جمع كثير ، وأكرمه المظم إكراما ضخما أغناه ، وصار له مال جم .

أما الرابع فمحمد بن عبد الغنى المقدسى ، الذى رحل لسماع الحديث ، ثم عاد إلى دمشق ، وكان له حلقة بجامعها ، وكان حافظا زاهدا ورعا ، محب المظم عيسى ، وسمع بقراءته الكثير .

وأحاط المظم نفسه بجماعة من أدياء عصره وعلمائه ، لا يقارقونه في سفر ولا حضر ، منهم : نحر القضاة نصر الله بن هبة الله المعروف بابن بصافة ، وكان حنفيا على مذهبه ، درس الأدب في مصر ، وتقدم في النظم ، وكتابة الرسائل ، وله ديوان شعر ، وعلت منزلته عند المظم ، وقدّره الناس ، ومدحه الشعراء .

ومهم : جمال الدين بن شيث ، وكان مصريا أيضا ولد بإسنا ، ونشأ بقوص ، وتلقى دراسته بها ، وعنى بالأدب نظمته ونثره ، وكان يوصف بالورع والدين والروءة ، وكان بينه وبين المظم مداعبات ، كتب إليه امرأة أنه لما فارقه ودخل منزله ، طالبه أهله بما حصل له من ابن السلطان ؛ فقال لهم : ما أعطاني شيئا ؛ فقاموا إليه بالخفاف وصفوه ، وكتب بعد ذلك شعرا :

وتخالفت يبيض الألف ، كأنها الـ تصفيق عند مجامع الأعراس
وتطابقت سود الخفاف ، كأنها وقع المطارق من يد النحاس
فرمى المظم الرقمة إلى نحر القضاة بن بصافة ، وقال ، أجيء عنها ؛ فكتب إليه
نثرا ، وفي آخره :

فاصبر على أخلاقهن ، ولا تكن متخلقا إلا بخلق الناس
واعلم إذا اختلفت عليك بأنه « ما في وقوفك ساعة من باس »

وبقي من آثار ابن شيث الأدبية كتابه : معالم الكتابة ، ومغانم الإصابة ، وضمه في آداب الكاتب الديواني ، وما يجب أن يتصف به : من الصفات الخلقية والعلمية ، وفي منهج كتابة الرسائل ، وعقد فيه فصلا للبلاغة وما يتصل بها . وقد تولى ابن شيث كتابة الإنشاء للمعظم .

ومنهم : شرف الدين محمد بن نصر المعروف بابن عنين ، وكان من أكبر شعراء عصره ، نفاه صلاح الدين من دمشق ، حين اشتط في شعره في نقد الدولة ، وهجاء القائمين بها من وزراء وقضاة وقواد ، وغمز علماء دمشق ورؤسائها وأعيانها . وظل ابن عنين في معتزله حتى مات صلاح الدين ، وآلت إمبراطوريته إلى العادل الذي قسمها بين بنييه ، فكانت دمشق من نصيب ابنه المعظم ، وعاد إليها ابن عنين حينئذ ، فأقبل عليه الملك ، وجعله من أقرب المقربين إليه ، يسر لحديثه ، ويطرب لدعابته ، ويعتمد عليه فيما يهمه من الأمور .

وكان ابن عنين فضلا عن شعره ، عالماً بفنون الأدب ، واسع الرواية للشعر وأخبار العرب ، متقناً للغة ، يحفظ كتاب الجهرة لابن دريد ، طويل الباع في النحو ، الذي كان المعظم يعنى به أيعا عناية ، مشاركاً في الحديث والفقه ، ملماً بألوان الثقافة الإسلامية لمهده : من تفسير ، ومنطق ، وفلك ، وحساب ، وهندسة ؛ فكان ذلك من الأسباب التي دفعت المعظم إلى زيادة تقريبه ، ورفع مكانته ، حتى ولاه وزارته ، وكان يسفر عنه إلى الممالك المجاورة ، ولكنه مع شدة رغبته في صحبة المعظم ، رغب أن يمفيه من الوزارة ، واستقال من حمل أعبائها ، وكتب إليه .

أقلني عثاري ، واحتسبها صنعة يكون برحماها ، لك الله جازياً
كفى حزناً أن لست ترضى ، ولا أرى فتى راضياً عني ، ولا الله راضياً
ولست أرجى بهد سبمين حجة حياة ؛ وقد لاقت فيها الدواهيأ

ويظهر أن الشعب في دمشق لم يكن راضياً عن وزارته ؛ لسابق تاريخه

في المجداء وخبث لسانه . ولكن المظلم لم يرض أن يقيله ، وبقي على ذلك حتى
توفي الملك . وشعر ابن عنين وأخباره تنطق بقوة صلته بالمظلم ، كتب إليه
وهو مريض :

أُنظر إلى بمنين مولى لم يزل يولى الندى ، وتلاف قبل تلافى
أنا كالذى : أحتاج ما تحتاجه فاقم ثوابي والثناء الوافى
فلما قرأها أتاه بنفسه ، ومعه ثلاثمائة دينار ، وقال : هذه الصلة ، وأنا
العائد .

أما الدعابات الأدبية التي كان الشاعر يطرف بها الملك المظلم فكثيرة ، منها
ما قاله يداعب جمال الدين بن شيت ، والرشيد بن النابلسي ، وهو من الشعراء
الذين كانوا يمدحون بني أيوب ، ويضيف نفسه إليهما :

أنا ، وابن شيت ، والرشيد ، ثلاثة لا ترتجي فينا خلق فائدة
من كل من قصرت يداه عن الندى يوم الجدا ^(١) ، وتطول عند المائدة
فكأننا واو بمسرو ألحقت أو إصبع بين الأصابع زائدة
وقال يداعب ابن شيت أيضاً ، وبمض رجال حاشية الملك المظلم ، وكان ابن
شيت مغرماً بصناعة الكيمياء :

أنا وابن شيت في الخيام زيادة وابن النفيس ، وذا الملقى الصوفى
لا تيلنا رجي ، ولا أضيا فـا تُقرى ، ولا ندعى لدفع مخوف
أما الملق ، كما علمت ، ففسكه نصب على زبدية ورغيف
وفى بجيلة إن قرا ما خطه أبصرت منه غرائب التصحيف
ومهووس بالكيمياء ، يقطع الأوقات بالآمال والتسـوف
ينفى من الأبال تبرا خالصاً عقل ، لعمريك ، جدٌ سخيف

(١) الجدا : العطية .

وأنا وشعري ، كم ينفنى الوري فيه ، فلا أصنى إلى التّمنيف
ففضب ابن شيث ، وشق عليه أن يسخر منه ، وشكاه إلى المظم ، فأحضره ،
وأخذ عليه عهداً ألا يتمرض لابن شيث .

وسوف نتحدث عن ابن عنين وشعره في المظم ، في الفصل الذي سنمقده لصلة
المظم بالشعر .

هذه البطانة التي اتخذها المظم عيسى تدلنا على الاتجاه الذي رسمه لنفسه
في حياته ، ورغبته القوية في أن يستزيد من العلم ، ويفترف بقدر ما يستطيع
من فنون الأدب ، حتى استطاع أن يكتب اسمه بين علماء مذهب أبي حنيفة ، وأن
يصفه مؤرخوه بأنه رب السيف والقلم .

كتبه

ذكر مؤرخو المظم أنه اعتنى بالجامع الكبير ، الذي ألفه محمد صاحب أبي حنيفة ،
فشرحه في عدة مجلدات ، ولم ينس هؤلاء المؤخون أن يذكروا معاونة غيره له في
هذا الشرح . ولم أعر عليه فيما بين يدي من فهارس المكتبات .

وينسبون إليه كتاباً في المروض ، ربما كان الدافع له على تأليفه رغبته في أن
يستكمل النقص الذي كان يشعر به ، فقد كان لا يقيم وزن الشعر في بعض الأحيان ،
ولم أعر عليه كذلك . كما لم أعر على كتاب (الرد على ابن سينا) الذي ينسبه
إليه بعض مؤرخيه .

أما الكتاب الذي بقى لنا إلى اليوم من آثاره فكتاب « السهم المصيب
في كبد الخطيب » . دفعه إلى تأليفه حبه لأبي حنيفة ، وتمصبه لمذهبه ،
فقد وضع الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي كتاباً ضخماً في
تاريخ بغداد ، ترجم فيه للملأها ، ومن بينهم أبو حنيفة ، وفي غضون هذه الترجمة ،

أورد مأخذ على أبي حنيفة طعن بها عليه ، فنصب المظم عيسى نفسه لارد على هذه المطاعن ، ومضى ينقضها مسألة مسألة ، على حسب ورودها في الكتاب ، يأتي بقول الخطيب ، ثم يرد عليه . ودل المؤلف بكتابه هذا على معرفة واسعة بمسائل الفقه ، وقواعد النحو ، وعلم القراءات ، وأبناء التاريخ ، ورجال الحديث ، وعلى قدرة على الجدل ، والبرهنة ، والاستنباط ، وكان كتاب سيبويه مرجمه في مسائل النحو ، مما ينبيء بعمق دراسته لهذا الكتاب ، وفهمه لدقائقه ، وحفظه لشواهد .

لم يبوء المظم كتابه ، ولكننا نستطيع أن نتبين النواحي التي عني بها المؤلف ، وما أخذ الخطيب على أبي حنيفة ، والطرق التي رد بها المظم عليه .

ففي أول الكتاب رد المؤلف على ما ادعوه من أن أبا حنيفة لا يحسن النحو مستدلين على ذلك بأن رجلا سأله بمكة ، فقال له : رجل شج رجلا بحجر ، فقال ليس عليه شيء ، ولو رماه بأبا قبيس . ورد المظم على ذلك بردين : أولهما أن قد جاء مثله للمعرب ، وهو قولهم :

إن أباها وأبا أباها قد بلغنا في المجدغاياتها

إذ لم يقل : وأبا أبيها .

وثانيهما أنه أورد مسائل تبلغ الثلاثين ، نقلها المؤلف من الجامع الصغير والجامع الكبير ، لصاحب أبي حنيفة محمد بن الحسن ، حكاه عن الإمام أبي حنيفة دالة على مكانته من علم العربية . فنها أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق إن دخلت الدار ، لا تطلق حتى تدخل الدار ، ولو فتح أن طلقت للوقت ، والفرق بينهما أنه إذا كسر (إن) ، كانت للشرط ، وإذا فتحها كانت بتقدير اللام ؛ فكانه قال لدخولك الدار .

وانتقل إلى المسائل اللغوية يبين فيها حظ أبي حنيفة من معرفته باللغة ، راداً بذلك على من يزعم أنه غير خبير بها .

ومضى إلى ما حكاه الخطيب عن أبي حنيفة من المسائل التي تتعلق بالإيمان ، وأنه كان مرجئاً وجهمياً ، قال الخطيب : قد سقنا عن الأئمة أخباراً كثيرة ، تتضمن تقريباً أبي حنيفة والمدح له والثناء عليه ، والمحفوظ عند نقلة الحديث عن الأئمة المتقدمين وهؤلاء المذكورين منهم في أبي حنيفة خلاف ذلك ، وكلامهم فيه كثير لا مورسنيمة حفظت عليه ، يتعلق بعضها بأصول الديانات ، وبعضها بالفروع ، نحن ذا كروها بمشيئة الله ، ومعتقدون إلى من وقف عليها ، وكره سماعها ، بأن أبا حنيفة عندنا مع جلالة قدره أسوة غيره من العلماء الذين دوننا ذكرهم في هذا الكتاب ، وأوردنا أخبارهم ، وحكيما أقوال الناس فيهم على تباينها .

وهنا قال المعظم : أما قول الخطيب هذا ، فإننا إن شاء الله نبين أن قصده خلاف ما ذكر من المذرة ، وإنما قصد الشناعة ، جراءة منه وإفراء . ونقل عن الخطيب ما حكى عن أبي حنيفة في الإيمان ، إذ قال : أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسن أخو الخلال بإسناده إلى وكيع ، قال : سمعت الثوري يقول : نحن المؤمنون ، وأهل القبلة عندنا مؤمنون في الأنسكة والموارث والصلاة والإقرار ، ولنا ذنوب ، ولا ندرى ما حالنا عند الله . ثم قال : وقال أبو حنيفة : من قال بقول سفيان هذا فهو عندنا شاك . نحن المؤمنون هنا ، وعند الله حقاً . قال وكيع : ونحن نقول بقول سفيان ، وقول أبي حنيفة عندنا جراءة .

وهنا يعلق المعظم على ذلك فيقول : اعلم وفقك الله أن الإيمان هو التصديق ، واعلم أنه لا يكون تصديقاً بدون المعرفة ، والمعرفة لا تكون مع الشك ، إنما تكون مع اليقين ، وإذا ثبت هذا فنحن المؤمنون هنا ، وعند الله ، لأن المعرفة لا تختلف ، لأن من عرف هنا كان عارفاً عند الله ، لأن المعرفة ترفع الجهل ؛

وأما قول أبي حنيفة عن سفيان في قوله : نحن المؤمنون ، وأهل القبلة عندنا مؤمنون محمول على قوله تعالى : « قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . ألا تراه نفى الإيمان عن أسلم إلا من عرف بقلبه ، فثبت ما قلت : إنه لا يكون إيماننا إلا بمعرفة .

وحينما ينكر أن يكون ما رواه الخطيب صحيح النسبة إلى أبي حنيفة ، كرفقه مما نقله الخطيب ، منسوبا إلى أبي حنيفة ، من أنه قال : لو أن رجلا عبد هذه النمل يتقرب بها إلى الله لم أر بذلك بأسا . وذكر الخطيب أن ذلك كفر صراح . فقد نفى أن يكون ذلك مما قاله أبو حنيفة ، « فهذا لم ينقله أحد من أصحاب أبي حنيفة . وأعلم أن أصحاب الإنسان أعرف به من الأجنبي . ثم اعلم أن مذهب أبي حنيفة له أصول وقواعد وشروط لا يخرج عنها ، فأما أصول مذهبه رضى الله عنه ، فإنه يرى الأخذ بالقرآن والآثار ما وجد ، وقواعده ألا يفرق بين الخبرين أو الآي والخبر ، مهما أمكن الجمع بينهما ، إلا أن ثبت ناسخا أو منسوخا . وشروطه ألا يعدل عنهما ، إلا أن يجد فيهما شيئا ، فيعدل إلى أقوال الصحابة الملائمة للقرآن والسنة ، وإن اختلفوا تخير ما كان أقرب إلى الكتاب والسنة . فهذا عليه إجماع أصحاب أبي حنيفة ... وأعلم أن أخبار الآحاد المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم توجب العلم ، لأجل الاحتياط في الدين ، ولا توجب العلم . وأخبار التواتر توجب العلم والعمل معا ، فكيف بك عن أخبار الخطيب هذه ، التي لا تكاد تنفك عن قائل يقول فيها . فإذا نازلنا الأمر ، وساوينا ، قلنا : أخباره أخبار آحاد ، وأخبار أصحاب أبي حنيفة متواترة ، والعمل بالتواترة أولى . وقد ثبت مذهب أبي حنيفة وأصوله وقواعده ، فإذا ثبت أن هذه أصول أبي حنيفة ، فكيف يسوغ له أن يقول هذا . مع علمه بقوله تعالى : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فهذا لا يصح عن أبي حنيفة .

وعلى هذا النسق جرى الملك العظيم ، في الرد على السائل التي أثارها الخطيب ،
يحط بها من قدر أبي حنيفة ، ويشكك في قيمة مذهبه . ومن أغرب ما رواه عن
بعضهم أنه قال : كنت آتي أبا حنيفة أسأله عن الشيء من أمر الغزو ، فسأنته
عن مسألة ، فأجاب ، فقلت له : إنه يروى فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم كذا
وكذا ؛ فقال : دعنا من هذا . قال : وسأنته يوماً آخر عن مسألة ، فأجاب فيها ؛
فقلت له : إن هذا يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه كذا وكذا ؛ فقال :
حك هذا بذنب خنزير .

ولا يتردد العظيم في عدم قبول هذه الرواية ، فيقول : هذا النقل يخالف مذهب
أبي حنيفة . ثم إن الخطيب لم يمين المسألة التي ذكر الراوى أنه سأل أبا حنيفة
عنها ، ولا الخبر الذي أورده الفزازي .

ووقف المؤلف طويلاً عندما رواه الخطيب عن العلماء : من ذم رأى الإمام
والتحذير منه ، فرد على ذلك مسألة مسألة .

ولم يقنع العظيم بما قام به من الرد على ما أورده الخطيب مفتقراً به أبا حنيفة ،
بل مضى إلى الرجال الذين روى الخطيب عنهم ما انتقص به أبا حنيفة ، فأورد من
أحوالهم ما يبين به أنهم مجرحون في رواياتهم ، لا يوثق بهم فيما يقولون أو يروون ،
ومستشهداً في تجريحهم بما أورده الخطيب نفسه في كتابه : تاريخ بغداد ، ومن
لم يذكرهم الخطيب ، مضى إلى كتب الجرح والتعديل ، يستق منها أخبارهم التي
لا تحمل روايتهم أهلاً للثقة ولا الاطمئنان .

ولم يقتصر الملك العظيم على ذلك ، بل ذهب إلى الخطيب نفسه مؤلف
الكتاب ، فبين ضعف حفظه ، وأنه كان مصحفاً ، يجمع في كتبه الأحاديث
التي يعلم أنها ليست صحيحة ، وروى عن بعض أهل المعرفة بالحديث قوله : ثلاثة

عن الحفاظ لأحبههم ؛ لشدة تمصهم ، وقلة إنصافهم : الحاكم أبو عبد الله ، وأبو نعيم الأصبهاني ، وأبو بكر الخطيب .

قال للمظم : وأما الخطيب فإنه زاد عليهما في التعصب وسوء القصد . . . ولو ذهبنا نذكر أغلاطه وما تعصب به لطلال . ومن تبلغ به المصيبة إلى ما قد ذكرنا من تنظية الحق ، والتلبس على الخلق ، لا ينبغي أن نقبل جرحه وتعديله ؛ لأن فعله وقوله ينبيء عن قلة دين .

ولقد نقلت من خطه أشماراً قالها ، منها .

بات الحبيب ، وكلم له من ليلة فيها أقام إلى الصباح معاقبي
ثم الصباح آني ، ففرق بيننا ولقلما يصفو سرور العاشق
ومنها . . .

ومن هذا حاله لا يصلح أن يكون بمنزلة الأئمة الذين تقبل أقوالهم في الجرح والتعديل ورواياتهم .

وهكذا انتصر لأبي حنيفة ، ولم يرض إلا بأن يهدم البناء من أساسه .
والكتات سهل الأسلوب ، واضح العبارة ، لا اتواء في تعبيره ، ولا غموض في أدائه ، وهو يخلو من مقدمة المؤلف تحدد هدفه ، وتبين منهجه ، ولكنه يدل على واسع علم المظم ، وقدرته على المناقشة والجدل ، وأخذ الموضوع من جميع أطرافه .

تشجيعه للعلم

ليس بمعجب أن يجد العلم في كنف هذا العالم الملك ظلاً ظليلاً يأوي إليه ، وأن ينسط الملك يده بتشجيع العلماء ومن يطلبون العلم ، حتى وجد العلماء في مملكته الرخاء والسلام ، فأقبلوا عليها آمنين على رزقهم ، وحياتهم ، فازدهر العلم في عهده ، ونفقت سوقه في أيامه ، فقصده العلماء من الآفاق ، فأكرمهم

وأغدق عليهم الرزق وأجرى عليهم الرقيات الوافرة ، وقربهم منه ، وصار
يحبالهم ، ويستفيد منهم ، ويفيدهم ، وينظرهم .

ولم يبسط المعظم حمايته على علم دون علم ، بل وجد في جميع ألوان العلوم
وسيلة للنهوض العقلي لشعبه ، وكان من بين إخوته ، المحب للفلسفة والمشجع على
دراساتها ، والحامى لدارسيها ، فإذا كانت الفلسفة قد ضعفت دراساتها في عهد
صلاح الدين فقد عادت إليها الروح عند ما صعد المعظم على عرش دمشق ، فاشتهر
الاشتغال بعلوم الأوائل في دولته ، وأمن المشتغلون بها على أرواحهم ، بل وجدوا
عنده التقريب والتشجيع .

ويحفظ التاريخ من أسماء هؤلاء العلماء سيف الدين الآمدي ، الذي أحكم
دراسة أصول الفقه ، وأصول الدين ، وبرع في الخلاف ، والجدل ، والمنطق ،
والفلسفة ، وساعده على النبوغ في ذلك ذكاء يفرط بمض الناس في تقديره ،
حتى قالوا : إنه أذكى أهل زمانه ، ولكن الحياة لم تطب له في مصر ، ففقد
تعصب عليه طائفة من الفقهاء ، نسبوه إلى فساد العقيدة ، ومذهب الفلاسفة ،
وكتبوا محضراً يتضمن ذلك ، وحرروا فيه ما يستباح به الدم ، فخرج الآمدي
من مصر إلى الشام خائفاً يترقب ، ومضى إلى حماة ، ثم استدعاه المعظم إلى دمشق ،
فجاء إليه ، وتولى التدريس بالعززية ، إحدى مدارس دمشق ، وأغدق عليه الملك
المعظم نعمه ، وقربه منه تقريباً وثيقاً .

ومنهم شمس الدين الخوئي الذي نبغ في العلوم الحكيمة والشرعية ، فإنه
عندما ورد إلى الشام استحضره المعظم عيسى ، وسمع أحاديثه ، وأعجب به ، وأطلق
له مرتباً داراً ، وجعله من بطانته ، ثم ولاه قضاء القضاة في دمشق .

ومن العلماء الذين نالوا تشجيعه كذلك سبط ابن الجوزي ، صاحب كتاب التاريخ
المسمى : (مرآة الزمان) ، وهو من أجل الكتب في مادته . وشهر السبط بالوعظ ،
وكان له فيه لسان رطب ، ولكلامه تأثير في القلوب ، ولوعظه قبول لدى الخاصة

والعامة ، وقد نال سعادة ووجاهة لدى الملك المعظم ، وصار عنده بالمزلة المظنى ، فكان يحضر مجالسه بجامع دمشق وبقاقدس ، ويكر إلى جامع دمشق فيقيم عند المنبر بين العامة .

وقد جذب تشجيعه عالماً أديباً من كبار علماء عصره ، وترك هذا التشجيع أنراً خالداً ، ضم به إلى أدب العربية ، تراثاً نافعاً باقياً ، ذلك هو قوام الدين الفتح بن علي بن محمد البندارى الذى نشأ فى أصفهان ، وتربى بها ، ثم قدم إلى الشام ، ولحق بالملك المعظم ، وأهدى إليه كتاب الشاهنامه ، وهى نظم بالفارسية كتبها الشاعر الفارسى المشهور أبو القاسم الفردوسى ، وأودعها معظم ماوعى الفرس من أساطيرهم وتاريخهم ، من أقدم عهودهم حتى الفتح الإسلامى ، ورتبها ترتيباً تاريخياً ، تذكر الأسرة فتبدأ بأول ملوكها ، تبين تاريخه ، وما كان فى عهده من الحوادث ، ثم تذكر الملك الثانى ، وهم جراً .

أراد المعظم عيسى أن ينتفع بما فى الكتاب ، وأن ينفع به قراء العربية ، فطلب إلى أبى الفتح البندارى أن يترجمه إلى العربية ، فصعد بالأمر ، وظل أكثر من عام (من جمادى الأولى سنة ٦٢٠ هـ إلى شوال سنة ٦٢١) يمانى أمر ترجمة الكتاب ، حتى آتته ، وسجل الترجمة بمقدمته تبجيله الملك المعظم ، وما اقيه منه من تشجيع ، إذ قال : « ثم إنا نحمد الله الذى شيد مباني الشريعة ، ومهد قواعد الإسلام ، بمكان مولانا السلطان الملك المعظم ، شرف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، ملك الملوك والسلطين ، أبى الفتح عيسى بن الملك المعادل أبى بكر بن أيوب ، حين ذلل له نواصى العباد ، وما لك من العالم وشفوة البلاد ، وقضى لأولياته بالعز الأقدس ، والطرف الأشوس ، وحكم لأعدائه بالذل اللازم ، والمعطس الراغم ، وأيد عزائه بأمداد الفتح المبين ، وشيع أويته . بجنود النصر والتمكين ، فهو بأمر الله قائم ، آناء الليل وأطراف النهار . . . هذا مع ما خصه

الله به من الفضائل الباهرة ، والعلوم الزاهرة ، التي تبحر في فنونها وأنواعها ، وتملك أعنتها رافعاً منارها ، كالنار على يفاعها ، فهو ابن جلاها ، وطلاع ثناياها ، والمستبد من أقسامها بمرابعها وصفاياها ، حتى صارت أيامه مواسم تجلب إليها بضائع العلوم والآداب ، من كل مرمى سحيق ، وتضرب إليه أكباد المطي ، من كل فج عميق .

ولما جذبت السعادة بضبعي ، وطمحت بطرفي ، ووطئت بساط مملكته الفسيحة ، . . قدمت برسم الخدمة لخزانة آدابه ، لازالت معمورة ببقائه ، الكتاب المرسوم بشاه نامه ، الذي عني بنظمه الأمير الحكيم أبو القاسم منصور ابن الحسن الفردوسي الطوسي ، مطرزاً ديباجته بذكر السلطان السعيد أبي القاسم محمود بن سبكتكين رضي الله عنه ، ذا كراً فيه ملوك الفرس ، وتواريخ أيامهم ، وشارحاً فيه مقاماتهم الماثورة ، ووقائعهم المشهورة ، مع وصف سيرهم الحميدة ، وخلاتهم السديدة ، في إفاضة العدل والإحسان ، وإشاعة الأمن والأمان ، وصرف العناية إلى عمارة العالم ، وإسباغ ظلال الرأفة والرحمة على كافة الأنام ؛ فوقع من همته العالية موقع التبول . لكنه رأى الكتاب مع ما تضمنته أطباقه من عجائب تصاريف الأدوار ، وبدائع تأثيرات الأطوار ، والحكم التي تتفتح بها عيون البصائر ، والعبر التي تتقوى بها أعضاء التجارب ، قد استبدت العجم بفوائده ، وتوشحوا بقلائده ، وتخصصوا باستماع حكاياته وأقاصيصه ، واستأثروا بالاستمتاع بحكمه وأعاجيبه ، فاشترأت همته الجلالة في سماء المكارم ، وعزمته الرقادة في انتهاز فرص المآثر ، إلى أن تعمم فوائده ، وتكثر منافعه وعوائده ، فأمر مملوكه وصنيته : الفتح بن علي بن محمد بن الفتح البنداري الأصبهاني أن يترجمة ، فيحل حكاياته المنظومة ، وينزع عن معانفها أطار اللغات المجمعية ، ويفيض عليها فضفاض وشائع الألفاظ العربية ، ويكسوها رونق اللسان الذي هو أشرف

الأسن، المنزل به أفضل الكتب ، والمتنطق به خير البشر ، وخلصان الأمم ...
فقصدي المملوك لما ندب له ، أمثالاً للأوامر العالية ، ترتد فرائض بيانه وبنانه ،
وترتجف أحشاء يراعه ولسانه ، لأن هذه الحضرة — لا زالت بسطة جلالها
محمية من الانقباض ، ومعاهد دولتها محروسة عن يد الانقراض — مجتمة قروم
البراعة ، ومعرس فحول الصناعة ، الذين إذا هدرت شقاشق أقلامهم ، وجاشت
بحار خواطرهم وأفهامهم ، تلفت إلى غرهم اللائحة ، وحجولهم الواضحة ، من
يرتضخ لكنة عجمية ، تنبوعها الطباع ، وتمجها الأسماع ، وكيف يستطيع
ابن اللبون صولة البزل القناعيس ، وأنى يبعث الخشف الغرير ، عند زئير الأسد
وسط الخيس ؟ لكنه أمل من أنوار السعادة السلطانية ، التي إذا التفتت بعين
العناية إلى الهبأة الخافية ، كستها بهور الشمس البازغة ، وتوقع من المواطن
الشاملة ، التي إذا اشتملت على الغذاء الحاسئة ، أطالت باعها على مناكب الجبال
الشاخنة — أن يكسو معاطف هذه الترجمة خلع الارضاء ، وينوه بذكرها بحسن
الإصغاء ، ويود صفحات صحائفها بأنوار القبول والإقبال ، ويعديها شرف الكمال
وبهاء الجلال ؟ فلذلك ما أقدم المملوك على نقل الكتاب ... » .

وهذه المقدمة فضلاً عن اعترافها بما للمعظم من فضل في الحث على ترجمة
الكتاب — تشير إلى هذه الحاشية المثقفة التي أحاط المعظم بها نفسه ، والتي
دفعت مترجم الكتاب إلى أن يبذل جهده في الترجمة وإتقانها .

وكان المعظم ، زيداً على ذلك ، يريد أن يذلل سبيل العلم لطالبيه ، وأن يجمع
ما تفرق في الكتب في كتاب واحد ، ينسقه مؤلفه وينظمه ، تجنباً لتكرار المسألة
الواحدة في كتب عدة ، وجمعاً للمسائل المتعددة ذات الموضوع المتحد في نسق
واحد من الكتاب . وقد رأينا فيما مضى كيف أصر العلماء أن يجردوا له مذهب
أبي حنيفة وحده في كتاب . ويروى مؤرخوه أنه طلب إلى العلماء أن يجمعوا له

كتاباً كبيراً جامعاً في اللغة ، يشمل ما في كتاب الصحاح للجوهري ويضاف إليه ما فات الصحاح من التهذيب للأزهري ، والجمهرة لابن دريد ، وغيرها . ولست أدري أحقق العلماء له فكرته ، أم حال موته المبكر دون تحقيقها ، وإن كان ابن مكرم قد حققها بعد ذلك في كتابه : لسان العرب ، ولست أدري مدى انتفاع ابن مكرم بفكرة المعظم عيسى .

وطلب المعظم إلى العلماء أيضاً أن يرتبوا له مسند أحمد بن حنبل على الأبواب ، ويردوا كل حديث إلى الباب الذي يقتضيه ، فتجمع أحاديث الطهارة في باب واحد ، وكذلك يفعل في الصلاة وغيرها من الرقائق والتفسير والغزوات . فيكون كتاباً جامعاً .

وفكرة المعظم في هذا الجمع والترتيب فكرة سديدة ، ففي اللغة يجمع المعاني المتعددة للكلمة الواحدة ، بعد أن كانت متناثرة في كتب عدة ، وفي ذلك تيسير للكشف أمام الباحث ، ومحاولة لجمع كلمات اللغة ومعاني هذه الكلمات ، وفي ترتيب كتب الحديث على هذا الأسبق وضع للأحاديث التي تتعلق بالموضوع الواحد ، تحت أنظار الباحث دفعة واحدة ، ليكون فهمه المسألة التي يريد بحثها أشمل ، ودراسته لها أكل وأعمق . وفي ذلك تهديد السبيل أمام الباحث ، وتيسير الدرس له بجمع المواد التي يستطيع الاستنباط منها ، وإجراء بحوثه عليها .

ولرغبته القوية في نشر العلم بين أبناء شعبه رصد جوائز المتفوقين فيه ، وأعجب بكتب رآها جامعة لمادتها ، فأجاز من يحفظها ، فكانت جائزة من يحفظ الجامع الكبير مائتي دينار ، ومن يحفظ الإيضاح في النحو مائتي دينار ، ومن يحفظ المفصل للزحشرى في النحو أيضاً مائة دينار وخلمة ، وحفظ هذه الكتب جماعة وفي هم المعظم بما شرطه على نفسه .

وهذا ولا ريب نهج صالح ، وطريقة مثلى ، يدفع بها الملوك الصالحون أبناء

شعبهم على دراسة العلم والاستزادة من المعارف ، ولا تزال تتبع هذا النهج إلى اليوم»
تشجيعاً على التفوق والامتياز .

مدارسه

ساهم المظم عيسى مساهمة فعالة في نشر العلم ، بإنشاء المدارس المختلفة ، تيسيراً
للراغبين في أخذ العلم . فما أنشأ من المدارس أو أكل إنشاءه :

١ — المدرسة العادلية ، نسبها لوالده الذي دفن فيها سنة ٦١٩ هـ ، وكانت
أعظم مدارس الشافعية بدمشق ، بدأ نور الدين بإنشائها ، ومات قبل أن يتبناها ،
فأول العادل إتمامها ، ولكنه مات قبل ذلك ، فأتمها المظم ، وجعلها لشافعية
وهو مذهب أبيه ، ووقف عليها أوقافاً دائمة تحفظ حياتها ، ولا يزال التاريخ
يحفظ حفل افتتاحها ، فقد ألقى فيها الدرس يومئذ قاضي القضاة جمال الدين المصري
حيث عقد في إيوان المدرسة ، وحضر الدرس أعيان الشيوخ والقضاة والفقهاء ،
وحضر المظم عيسى هذا الحفل ، وجلس إلى يمينه شيخ الحنفية : جمال الدين
الحصيري ، ويليهِ شيخ الشافعية نجر الدين بن عساكر ، فالقاضي محيى الدين بن
الشيرازي ، فالقاضي محيى الدين بن يحيى الزكي ، وجلس عن يسار السلطان إلى
جانبه مدرس المدرسة ، فسيف الدين الآمدي ، فالقاضي شمس الدين بن سني الدولة ،
فقاضي المسكر ، وجلس قبالة السلطان تقي الدين بن الصلاح ، ودارت حلقة
كان فيها أعيان المدرسين والفقهاء ، وشرع الجماعة يتناقشون ، وقد أخذ المظم
بنصيبه من النقاش ، وتكلم في الدرس مع الجماعة .

وكان المظم يحضر مع الفقهاء دروس كبار العلماء ، فعند ما فوض تدريس
المدرسة النورية الحنفية إلى الشيخ جمال الدين الحصيري حضر المظم درسه في
ثالث ربيع الأول سنة ٦١١ هـ .

وإننا اليوم لنصوراً لأنفسنا هذا الحفل الجليل، يضم أعظم علماء دمشق، وقد جلس بينهم ملكهم، كأنه فرد منهم، يأخذ عنهم، ويأخذون عنه، وإن العلم ليملاً جواخ هؤلاء العلماء شعوراً بالعمة والكرامة.

ولم يقتصر الحفل على أعيان العلماء فحسب، بل اتصل بهذه الحلقة جمهور الناس، حتى ملثوا الإيوان.

ونالت هذه المدرسة مكانة سامية منذ إنشائها، فدرس فيها كبار العلماء، وظلت محتفظة بمكانتها بعد وفاة المعظم، ففيها عمل ابن خلدان تاريخه المشهور: وفيات الأعيان، ودرس بها ابن مالك صاحب الألفية، ووزل فيها ابن خلدون في أوائل المائة التاسعة.

٢ — وأنشأ المعظم إلى جانب هذه المدرسة الشافعية مدرسة للأحناف سنة ٦٢١ هـ، عرف من بين الكتب التي كانت تدرس فيها يومئذ كتاب الهداية في فقه الحنفية، وكتاب كافية ابن الحاجب في النحو.

٣ — ولم ينشئ المعظم عيسى المدارس في دمشق فحسب، بل أنشأ في القدس مدرسة سنة ٦٠٤ هـ، عني فيها بأن تكون المادة الأساسية التي تدرس بها علم النحو، وأن يكون الكتاب الذي يدرس فيها كتاب سيبويه. وكان المعظم من المولعين بالفقه والنحو، كما سبق أن ذكرنا.

٤ — وفي بيت المقدس أيضاً، وعلى برج باب الرحمة فيه، كانت مدرسة تعرف بالانصرية، نسبة لأحد رجالها: الشيخ نصر المقدسي، ثم عرفت بالفزالية، نسبة لأبي حامد الفزالي، الذي اعتكف فيها، ويقال: إنه أتم فيها تأليف كتابه: إحياء العلوم؛ ويظهر أن التخريب قد نال هذه المدرسة، فأعاد إنشاءها المعظم عيسى سنة ٦١٠ هـ، ويبدو أنها كانت صغيرة، فجعلها زاوية لقراءة القرآن،

والاشتغال بالنحو، وجعل بها خزانة كتب وقفها عليها ، ليسهل لطلبتها الرجوع إلى كتب دروسهم .

٥ — وبني قبة بالمسجد الأقصى ، وقف عليها وقفاً جليلاً ، على أن يدرس في تلك القبة الفقه والقراءات السبع ، وشرط ألا يصرف من وقفها شيء لغير الحنفية ، وولى تدريسها أحد تلامذة أستاذه : تاج الدين الكندي ، وهو شمس الدين بن رزين الذي كان حافظاً للقراءات العشر وطرقها .

وقد اقتدى به في إنشاء المدارس زوجه وابنته ، فأنشأت الأولى ، وكانت تدعى عزيزة الدين خاتون ، مدرسة بدمشق للحنفية ، وأنشأت الثانية مدرسة للحنفية ، بدمشق أيضاً .

* * *

نحن إذاً أمام ملك عالم شغف بالبحث والقراءة ، لا يدعهما حتى في أخرج الأوقات التي صرفت به في الحياة ، وساهم مساهمة فعالة في الإنتاج العلمي ، فألف كتاباً بقي حياً إلى اليوم ، ودل على اطلاع واسع ، وثقافة متنوعة ، وألف له حاشية من كبار علماء عصره ، اتخذهم جلساء وندماء ، يباحثهم ، ويناقشهم ، ويأخذ عنهم ، ويأخذون عنه ، وكان يجد لذة وشرفاً أن يأخذ كتابه يمينه ، ويمضي إلى حلقة أستاذه ماشياً ، ويجلس بين يدي المدرس ، مع الطلبة ، لا يميزه عنهم إمارة ولا ملك .

بسط حمايته على العلماء ، فأقبلوا عليه من كل حذب ، ووجدوا في ظله حياة وادعة وارفة ، سعدوا فيها بمطاء غزير دار . وقد رسم لهم بعض مناهج التأليف ليدل سبل العلم لراغبه ، ولييسر السبيل أمام الباحثين ، وعمل على نشر العلم بكل ما في يده من الوسائل ، فأثاب الطلبة المجدين ، وكافأهم على جدهم بالمال ، وأنشأ المدارس وشجع على إنشائها ، وشارك في افتتاحها ، مساهماً في نشاطها .

حياته السياسية

عاش العظم جل حياته بالشام ، وكان والده يمدّه ليكون حاكماً على إحدى ولايات الإمبراطورية الأيوبية الواسعة ، في كنف عمه صلاح الدين وأبناء عمه ، فما كاد يقارب الخامسة عشرة حتى أوحى إليه والده المادل — وقد مات صلاح الدين ، وقام بعده ولده العزيز — أن يدخل على العزيز ، ويقبل يده ، ويطلب منه دمشق ، فدفعها إليه العزيز ، وأعطاه مستحقّه ، فتدرب منذ الصغر على الولاية والحكم ، فلما حدث الخلاف بين أبناء صلاح الدين ، وذهبت ريمحهم ، آل إرث الإمبراطورية الصلاحية إلى الملك السياسي الداهية : المادل أبي بكر بن أيوب ، فعزم على أن يعرّن بنيه تمريناً عملياً على الحكم ، وأن يكون هو لهم بمثابة القائد المدرب المرشد ، فقسم البلاد بين أبنائه ، فجعل الشرق لابنه الأشرف موسى ، والشام لابنه العظم عيسى ، ومصر لابنه الكامل محمد ، وربما يكون قد أراد بهذا التقسيم أن يجعل كلا من أولاده ، مستقراً في ولايته لا يطمع في ملك أخيه ، فانما بما تحت يده ، حتى لا تتكرر مأساة أبناء أخيه ، وكانت استنابة المادل لابنه في دمشق سنة ٥٩٧ هـ ، (١٢٠٠ م) ، وظل نائباً عن أبيه في دمشق حتى مات المادل سنة ٦١٥ هـ (١٢١٦ م) ، وأبوه في هذه المدة الطويلة يرقب منهجه في الحكم ، ويقيمه مقامه في قيادة الجيوش ، وإذا أراد إصلاح خطأ وقع فيه ، قوّمه بأفضل الطرق وأليناها . فعندما تزلت الفرنج على دمياط سنة ٦١٥ هـ ، بعث المادل بالعساكر التي كانت معه إلى ولده الكامل بمصر ، وأقام العظم بالساحل ، ومعه عسكر الشام ، ليكون في مقابلة الفرنج ، حتى يشغلهم عن دمياط . ولما بنى على الطور ، وهو جبل يطل على طبرية الأردن ، قلعة حصينة ، وأنفق عليها أموالاً ضخمة ، لم يرق المادل إقامتها ، ورأى فيها خطراً على البلاد ،

فقال لابنه : قد بنيت هذا الطار ، وهو يكون سبياً لحراب الشام ، وقد سلم الله من كان فيه من أبطال المسلمين ، وسلاح الدنيا والذخائر ، وأرى من المصلحة خرابه ؛ ليتوفر من فيه من أبطال المسلمين والعدد على حفظ دمياط ، وأنا أعوضك عنه . ولكن عز على المعظم أن يخرب هذا الحصن ، وعتب في نفسه على أبيه ، وظل أياماً لا يدخل إليه ، فبعث إليه أبوه العادل ثانياً ، وأرضاه بالمال ، فرضى للمعظم ، ونقل من الحصن ما كان فيه ، وأمر بتخريب القلعة ، عند ما رأى الفرج خارجين يريدون بيت القدس .

فلما مات أبوه استقل بحكم البلاد ، وكانت مملكته تقع بين حمص وعريش مصر . يدخل في ذلك بلاد الساحل الإسلامية منها ، وبلاد النور ، وفلسطين ، والقدس ، والكرك ، والشوبك ، وصرخد ، وغير ذلك . وكوّن لنفسه جنداً ، عني زبهم وتدريبهم ، ورأى أن القليل مع التدريب ، أفضل من كثير لا ينالون حظهم من العناية وحسن التعليم ، فلم يزد جنده على أربعة آلاف فارس .

وظل المعظم محافظاً على الصلوات الطيبة التي تربطه ببغداد ، وكان يرى فيها الأم الروحية ، التي لا يليق نزاعها ولا قتالها ، وإن كان يرى أنها لا تساعد أحداً ولا تنجده ، كما سنرى في سير الحوادث . وكانت بغداد تحب أن تبقى على صلتها بملوك بني أيوب ، فكانت ترسل إليهم الخلع بين حين وآخر ، والملوك يستقبلون هذه الخلع ، ويلبسونها في ابتهاج وإجلال . ولعلمهم برون في ذلك تنبيهاً لقوام عروشهم في قلوب رعاياهم الذين ورثوا إجلال الخليفة وتعظيمه .

أما صلته بأخويه فقد تداولها الصفاء والكدر ، فحيناً نلّس الحب يتجلى في تصرفاته مع أخيه الكامل ، مصحوباً بالإجلال . روى أنه رغب في لقاء أخيه ، فترك دمشق إلى الإسكندرية ، حتى وصل إليها في ثمانية أيام ، فخرج الكامل إليه والتقاء ، فترجلا واعتنقا ، وركب الكامل ، وبقي المعظم واقفاً ، فقال له الكامل

باسم الله ، اركب ؛ فأشار إلى الفرس الذي كان تحته وأنشد :

وإذا المطيُّ بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
فأطرب ذلك الكامل وسره .

كما ذكر مؤرخوه أيضاً أنه كان يخطب للكامل على منابر بلاده ، وكأنه بذلك
يمتدح لأخيه الأكبر بالزعامة على الأسرة كلها ، فلم يكن في غالب الأوقات يذكر
اسمه على المنابر مع اسم أخيه .

وكان للمعظم فضل كبير ، في إنقاذ العرش لأخيه الكامل ، ذلك أنه « لما وصل
الفرنج إلى دمياط ، كان الملك الكامل في مبدأ استقلاله بالسلطنة ، وكان عنده
جماعة كثيرة من أكابر الأمراء ، منهم عماد الدين أحمد بن المشطوب ، فاتفقوا مع
أخيه الملك الفاتر إبراهيم بن الملك العادل ، وانضموا إليه ، فظهر للملك الكامل
منهم أمور تدل على أنهم عازمون على تفويض الملك إليه ، وخلع الكامل ،
واشتهر ذلك بين الناس ، وكان الملك الكامل يداريهم لكونه في قبالة العدو ،
ولا يمكنه المناظرة والمنافرة ، ولم يزل على ذلك حتى وصل إليه أخوه الملك المعظم
عيسى ، يوم الخميس تاسع عشر ذي القعدة من سنة خمس عشرة وستمائة ، فأطلعه
الكامل في الباطن على صورة الحال ، وأن زعيم هذه الطائفة ابن المشطوب ، فجاءه
يوماً على غفلة في خيمته ، واستدعاه ، فخرج إليه ، فقال له : أريد أن أتحدث معك
مراً في خلوة ؛ فركب ابن المشطوب فرسه ، وسار معه ، وقد جرد المعظم جماعة
من يعتمد عليهم ويشق بهم ، وقال لهم اتبعونا . ولم يزل المعظم يشغله بالحديث ،
ويخرج معه من شيء إلى شيء ، حتى أبعدته عن الخيم ، ثم قال له : يا عماد الدين ،
هذه البلاد لك ، ونشتهي أن تهبها لنا . ثم أعطاه شيئاً من النفقة ، وقال لأولئك
المجردين : تسلموه ، حتى تخرجوه من الرمل ، فلم يسمعه إلا الامتثال ، لانفراده ،
وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال ، ثم عاد المعظم إلى أخيه الملك الكامل ،

وعرفته صورة ما جرى ، ثم جهز أخاه الملك الفائز المذكور إلى الموصل ، لإحضار النجدة منها ، ومن بلاد الشرق ، فأت بسنجر ، وكان ذلك خديعة ؛ لإخراجه من البلاد ، فلما خرج هذان الشخصان من المعسكر ، تحملت عزائم من بقى من الأمراء الموافقين لهما ، ودخلوا في طاعة الملك الكامل .

وهكذا استطاع أن ينقذ العرش لأخيه الكامل ، من مؤامرة كادت تودى به ، كما كان له أثر فعال في إنقاذ العرش ، بل إنقاذ مصر والعالم الإسلامى بموقفه في معركة دمياط ، سنتبينه فيما يلي .

ولست أدري الأسباب التى بعثت الجفوة بين الإخوة ، رغم أن العادل ، بتقسيمه الإمبراطورية فيما بينهم ، كان يبغي أن يؤسس صلة بعضهم ببعض على المودة والحب ، وقد أثمر ذلك وحدتهم أمام دمياط فانتصروا ، ولكنى أرجح أن سبب ذلك يعود إلى طمع كل فيما فى يد صاحبه ، ولعل الكامل صاحب مصر كان يبغي أن ييسط سلطانه الفعلى على الشام ، وأن يأخذه من أخيه المعظم ، ويدانسا على ذلك أن الكامل لم يلبث بعد وفاة أخيه أن تحرك إلى الشام وأخذه من ابن المعظم : الناصر داود ، وربما كان الكامل يرى نفسه الوارث الشرعى لإمبراطورية العادل كلها ، وكان المعظم يحذر أخاه أن تمتد أطماعه إلى أن يتحرك ، فيأخذ ما تحت يد المعظم ، ويكتب إليه مهدداً إذا أنكر منه حالته : لئن لم تنقه لآخذنك بمن معك . ويقول ابن واصل مؤرخ الأيوبيين : إن الكامل لم يستطع أن يهاجم الشام إلا بعد وفاة المعظم ، وكان يظن أنه إن خرج إلى الشام انحاز عسكره أو معظمهم إلى المعظم ، وحيل بينه وبين الديار المصرية ، لما كان يتوهم من ميل عسكر مصر إليه ، ومحبتهم له ، علماً منهم بقيامه بأمر الجند ، وعنايته بهم .

ومما يرجح أن سبب النزاع يعود إلى الطمع ما يرويه التاريخ من أن الملك

أضيس بن الملك الكامل قدم من ، اليمن عازماً أن يأخذ الشام من عمه المعظم عيسى سنة ٦١١ هـ .

كما كان المعظم عيسى يضم إليه بعض مملكة أخيه الأشرف حيناً ، ويحاصر بعض بلاده حيناً آخر . ولعله كان يفعل ذلك انتقاماً من الأشرف الذي كان يؤيد الكامل ، وعلى صلة وثقى به . وهكذا استتب الخلاف بين الإخوة ، وكان له أثر سيئ في التاريخ ؛ فقد عدا المعظم يستعين بالأجانب وأعداء الخلافة العباسية على أخويه ، ويساعد من يخرج على طاعتهم : روى المؤرخون أن الأشرف مضى إلى مصر ، فاستناب على مملكته أخاه شهاب الدين غازيا ، فسولت له نفسه العصيان ، وانتهز المعظم هذه الفرصة ، فزين له عمله ، وكاتبه وأعاناه ، وإن لم يثمر هذا العصيان ، بل استطاع الأشرف أن يسترد مملكته بعد عودته من مصر .

ويظهر أن المعظم قد اقتنع بتدبير أخويه ضده ، فضى يطلب الحليف عليهما ، فوجده في السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه حاكم أذربيجان ، الذي أراد أن يملك بغداد ، وأن يأخذها من الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، فراسله المعظم عيسى ، ليعينه على قتال أخيه الأشرف ، ولم ترق هذه المحاولة في عين بغداد ، فأرسلت رسولا من قبلها ، بخلمة إلى الملك المعظم وإخوته ، يحمل رسالة إلى المعظم ، تطلب منه أن ينصرف عن موالة جلال الدين ، ويرى سبط ابن الجوزي ما دار بين المعظم والرسول ، وكان خال سبط ابن الجوزي قال : قال لي الملك المعظم : قال خالك : المصلحة رجوعك عن هذا الخارجى ، (يعنى جلال الدين الخوارزمي) وترجع إلى إخوتك ، ونصلح بينكم ، قال : فقلت لخالك : إذا رجعت عن ابن الخوارزمي ، وقصدي إخوتي تنجدونني ؟ قال نعم ؛ فقلت : ما لكم عادة تنجدون أحداً ! هذه كتب الخليفة الناصر لدين الله عندنا ، ونحن على دمياط ، نكتب ونستصرخ به ، فيجىء الجواب بأننا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا .

قال : قلت : مثلي معكم كمثل رجل كان يخرج إلى الصلاة ، وبيده عكاز ؛ خوفاً من الكلاب ، فقال له بعض أصدقائه : أنت شيخ كبير ، وهذا العكاز يثقلك ، وأنا أدلك على شيء يغنيك عن حمله ؛ قال : وما هو ؟ قال : نقرأ سورة يس ، عند خروجك من الدار ، وما يقربك كلب . وأقام مدة ، فرأى الشيخ حامل العكاز ، فقال له : أما قد علمت ما يغنيك عن حمله ؟ فقال : هذا العكاز لـكـب لا يعرف القرآن . وقد اتفق إخوتي على ، وقد أنزلت ابن الخوارزمي على خلاط ، إن قصدني أخي الأشرف منعه ، وإن قصدني أخي الكامل ، فأنا له .

والقصة واضحة الدلالة على ما وصل إليه الخلاف بين الإخوة ، وعلى مدى ما وصلت إليه الخلافة العباسية يومئذ : من عجزها عن أن تمد يد العون إلى أنصارها . ورغم ذلك الضعف في الخلافة العباسية ، والتحالف بين المعظم والخوارزمي ، لم يرض المعظم أن يمين حليفه على الخليفة ، قال المعظم عيسى : كتب إلى جلال الدين يقول : تحضر أنت ومن عاهدني ، فنتفق ، حتى نقصد الخليفة ، فإنه كان السبب في هلاك المسلمين ، وفي هجر الكفار إلى البلاد . قال المعظم : فككتبت إليه : أنا معك على كل أحد ، إلا على الخليفة ، فإنه إمام المسلمين .

وقد رأى الأشرف أن لا قبل له بلقاء الخوارزمي ؛ فقدم إلى دمشق ، وأطاع المعظم ؛ وسأله أن يسأل الخوارزمي الرحيل عن خلاط ، وخفض له جناح تواضعه ، فأثله : نحن مما اليك ، وما أنبت الشعر على رءوسنا إلا أنت ، فبعث المعظم إلى الخوارزمي ، فرحل عن خلاط ، بعد أن أقام عليها أربعين يوماً .

وأما الكامل فقد خاف من انثناء المعظم إلى الخوارزمي ، ومن مبالغته في هذا الانثناء ، حتى لقد وعده أن يخطب له ، ويضرب السكة باسمه ، فأرسل إليه الخوارزمي خلمة لبسها ، وشق بها دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل ، الذي عزم على حرب أخيه ، وخرج بمساكره من القاهرة ، ولكنه لم يلبث أن عاد .

ويقال : إن المعظم أرسل إليه رسالتين : إحداهما سرية ، يقول فيها : إني نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدى ، أتصدق بألف دينار ؛ فإن جميع عسكرك معى ، وكتبهم عندى ، وأنا آخذك بعسكرك . أما الرسالة التى كتبها ليقراها الكامل علانية ففيها : إني مملوكك ، وما خرجت عن محبتك وطاعتك ، وحاشاك أن تخرج وتقابلنى ، وأنا أول من أنجدك ، وحضر إلى خدمتك ، من جميع ملوك الشام والشرق . فأظهر الكامل هذا بين الأمراء ، وعاد إلى القاهرة ، وقبض على عدة من الأمراء ، متهماً إياهم بمكانة المعظم .

ولعل المعظم كان يريد أن يتجنب الحرب مع أخيه بكل وسيلة ، فكتب إليه هذه الرسالة الظاهرة ليتخذها الكامل — إذا أراد — ذريعة للعودة والكف عن القتال ، وفي الوقت نفسه يهدده ويتوعده فى رسالة سرية .

وكان لهذا النزاع أسوأ الأثر ، فقد استغله أعظم استغلال الإمبراطور فردريك الثانى ، واستطاع أن يحصل من الكامل بعد أن تفتت هذه الوحدة بين الأيوبيين ، تلك الوحدة التى تحطم على صخرتها جموع الصليبيين ، فارتدوا على أعقابهم ، تاركين دمياط منهزمين شر هزيمة . استطاع أن يحصل على معاهدة ، استعظم المسلمون أمر إبرامها ، ووجدوا لها من الألم والوهن ما لا يمكن وصفه ، وبمقتضاها نزل الكامل عن بيت المقدس للفرنج ، وتكون القرى التى بين عكا ويافا ، وبين لد والقدس بأيدي الفرنج ، وهكذا أضاع النزاع والطمع كل ما استطاع صلاح الدين أن يسترده من أيدي الصليبيين ، وبذل فى سبيل استرداده الكثير من الجهود والدماء ، واحتاج الأمر إلى أن يبذل المسلمون جهوداً جديدة شاقة مضنية ، يستجمعون بها ما كان فى أيديهم فقرطوا فيه ، واستطاع الإمبراطور أن ينفذ المعاهدة ، وساعده على تسلم بيت المقدس أن المعظم كان قد مات . قال المؤرخون : لو أن المعظم كان حياً ما استطاع الفرنج أن يتسلموا بيت المقدس ، كما

أنه على يد ابنه : الناصر داود استرد بيت المقدس ، وعاد إلى حظيرة الإسلام .
من اللوم في هذه النكبة التي حلت بالمسلمين يومئذ ؟
لا أستطيع أن أخلى من اللوم واحداً من الإخوة الذين سمحوا للطامع أن
تفرق كلمتهم ، ونفقت قوتهم ، وتوهن من جهودهم ، وإن كان حظ الكامل من
اللوم أكثر من حظ أخويه ، فهو كبيرهم ، وكان هو مصدر الطمع على ما يظهر ،
وكان يريد أن يسيطر سيطرة فعلية على الشام ، ولم يلبث العظيم أن مات حتى بدأ
الكامل يحقق سياسته .

علاقته بالفرنج

لم يكن فرنج سوريا بعد وفاة صلاح الدين في حالة تسمح لهم بشن حرب
صليبية ، فإن حاكم المدن الساحلية التي تركت للفرنج بمقتضى صالح الرملة ، والمقرب
بملك القدس — كان من الضعف بحيث لا يستطيع المفاخرة في مخاطرة جديدة ،
وكان قائماً بأن يحكم مدنه ، ويراعى شروط الهدنة التي جددتها العزيز عند صعوده
على عرش مصر ، وكان أمير أنطاكية وطرابلس مشغولاً شغلاً دائماً بحفظ إمارته
من جاره حاكم أرمينية .

ولكن البابا سيلستين الثالث لما علم بوفاة صلاح الدين ، وانقسام إمبراطوريته
بين أسرته ، واستقلال كل منهم بنفسه ، أراد انتهاز تلك الفرصة ، ودعا إلى حرب
صليبية جديدة ، لإنقاذ بيت المقدس .

لم يستجب إلى نداء البابا سوى إمبراطور النمسا هنري السادس ، الذي جمع
جيشاً وأسطولا ، لم يحقق شيئاً من أهداف الصليبيين ، وعاد من حيث أتى .
فدعا البابا إنوسنت الثالث إلى حرب تتجه فيها قوى الصليبيين إلى
استخلاص بيت المقدس ، واستجاب للبابا ملك النمسا ، وكثير من أمراء ألمانيا

واجتمع جيش عدته مائتان وخمسون ألفاً أكثرهم من الألمان ، وتزلوا بمكا سنة ٦١٤ هـ ، ومضى الصليبيون من عكا ، ينهبون البلاد ، ويأسرون ، ثم يعودون إلى مدينتهم ، من غير أن تحدث بينهم وبين المادل معارك حاسمة ، فإنه قد تجنب لقاءهم ، إذ كان في قلة من الجند ، أما باقى عسكره فتفرق في البلاد ، وكان المادل حازماً كثير الحذر ، يخاف أن يهزم إذا التقى بهم ، ومضى إلى دمشق ، وأرسل في طلب الجند من أجزاء إمبراطوريته ، في حين ظل الصليبيون يعيشون في الأرض فساداً ، ويقوون بعض قلاع الساحل . ورأى الصليبيون أن أفضل طريق للتغلب على عدوهم ، هو ضربه في مكان حيوى منه ، وكانت مصر ذلك المكان الحيوى المختار ، فما إن قوى الصليبيون بأسطول وأمداد جديدة ، حتى وجدوا في أنفسهم الشجاعة للزول على دمياط في صفر سنة ٦١٥ هـ ، وهم نحو سبعين ألف فارس وأربعمائة راجل .

كانت مدينة دمياط محصنة تحصيناً قوياً ، ففضلاً عن المزايا التي منحها إياها الطبيعة ، فجعلتها شبه جزيرة يحيط بها الماء من الشرق والغرب والشمال ، عني ملوك مصر بتحصينها ، ووضع حاميه قوية فيها ، تدفع عنها غارات الفرنج ، الذين هاجوها مراراً عدة في عهد صلاح الدين ، فردم على أعقابهم ، وعنى بأمر تقويتها ، وزارها ليتفقد أمورها مع ولديه سنة ٥٧٢ هـ ، وكانت إحدى موانى الأسطول المصرى في عهده ، وبني الملك العزيز لها سوراً ، وكان لها برج ضخم على النيل ، بالقرب من شاطئ البحر في غاية القوة والامتناع ، فيه سلاسل من حديد عظام القدر والغلط ، تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر الأبيض من عبور أرض مصر ، وتمتد هذه السلاسل إلى برج آخر حصين مقام في وسط النيل ، وكانا مشحونين بالمقاتلة والعدد .

زل الصليبيون بالبر الغربى للنيل ، وجعلوا هدفهم الأول الاستيلاء على البرج

المقام في وسط النيل ، فأقاموا لذلك أبراجاً على سفنهم ، ولكن نيران الحامية معززة بجيش الكامل على الشاطئ الشرقي ردت هجماتهم الأولى ، ولم يستطع الصليبيون امتلاك هذا البرج ، وظلوا كذلك أربعة أشهر ، جمع فيها الفرنج مراكب بعضها إلى بعض ، وأقاموا عليها قلعة كبيرة ، أسندوها إلى البرج ، وقتلوا من فيه ، حتى اضطروهم إلى التسليم ، وكانت الحسرة على هذا البرج كافية لموت العادل كدأ .

لم يئس الملك الكامل ، بل نصب عوض السلاسل جسراً عظيماً ، امتنع به الفرنج من سلوك النيل ، وقتلوا عليه قتلاً شديداً متتابعاً حتى قطعوه ، فأخذ الكامل عدة مراكب كبار ، وملأها ، وخرقها ، وغرقها في النيل ، فمنعت المراكب من سلوكه ، فلما رأى الفرنج ذلك ، قصدوا خليجاً كان النيل يجري فيه قديماً ، فحفروا ذلك الخليج ، وعمقوه ، وأجروا الماء فيه إلى البحر الملح ، وأصعدوا مراكبهم فيه ، إلى مكان يقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل ، وكان قد جمع جيوشه ، ونزل إلى جنوب دمياط في مكان لا يزال يعرف باسم العادلية ، وهاجوا الكامل غير مرة ، ولم يظفروا منه بشيء ، واجتمع عنده من الجند ما لا ينحصر عدده .

غير أن أمراً حدث غير اتجاه الحرب ، ذلك أن مؤامرة دبرت للملك الكامل ، كان يراد بها خلعها عن العرش ، فاضطر الكامل إلى ترك ميدان الحرب ليلاً ، وأصبح الجند ، فلم يجدوا سلطانهم ، فمضوا لا يلوون على شيء ، ولم يقدرُوا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم ، وأموالهم وأسلحتهم ، إلا اليسير الذي يخفى حمله ، وتركوا الباقي بحاله من ميرة وسلاح ودواب وغير ذلك ، ولما لم ير الفرنج أحداً عبروا النيل إلى بر دمياط آمنين ، في ٢٠ ذى القعدة سنة ٦١٥ هـ ، وغنموا ما في عسكر الكامل ، فكان عظيماً يعجز العادين ، ومضوا إلى دمياط ، وأحرقوا

بها ، وحاصروها برأ وبجراً ، وأقاموا عليهم خندقاً بنوا عليه سوراً ، بمنهم من يريد من المسلمين ، وألحوا على أهل دمياط بالقتال ، ومنعوا عنهم الأقوات ، فقلت ، واشتد غلاء الأسعار ، وأنهكت الأمراض أهل المدينة ، وامتلاأت الطرقات من الأعوات ، وهدمت الأقوات ، وصار السكر في عزة الياقوت ، وفقدت اللحوم ، فلم يقدر عليها بوجة ، وآت بالناس الحال إلى أن لم يبق عندهم غير شيء يسير من القمح والشعير ، ومع هذا صبروا صبراً لم يسمع بمثله . ويدلنا على ما كان ينتاب أهل دمياط من مخاوف وآلام هذه الرسالة الشعرية التي كتبها أحد أبناءهم ، وهو الأمير جمال الدين السكناقي ، وألقى بها إلى الملك الكامل في سهم نشاب ، وهي :

يا مالكي ، دمياط ثغر هدمت	شرفاته ، كادت تجث أصوله
يقربك من أزكى السلام تحية	كالسك ، طاب دقيقه وجليله
ويقول عن بعد ، وإنك سامع	حتى كأنك جاره وزيله :
بأيها الملك الذي ما إن يرى	بين الملوك شبيهه وعديله
هذا كتاب موضح من خالتي	ما ليس يمكنني لديك أقوله
أشكو إليك عدو سوء أهدقت	بجميعه فرسانه ، وخيوله
فالبر قد منمت إليه طريقه	والبحر عز لنصره أسطوله
فخضوعه باد على أبراجه	وحنيذه ، وبكاؤه ، وعويله
ولو استقطاع لآثم بابك لاإذا	لكنه سدت عليه سبيله
فقد انتهت أدواؤه ، وتحكمت	علاته ، ونحا عليه نحوه
وبقي له رمق يسير يرتجى	أن يشتقى ، لما دعاك ، عليه
فاحرس حماك بعزيمة تشفى بها	داء لك يرتجى تمليه
فإنه أعطاك الكثير بفضل	ورضاه من هذا الكثير قليله

فالمذر في نصر الإله ودينه ما ساع عند المسلمين قبوله
والثغر ناظره إليك محقق ما إن يمل من الدموع هموله
ولئن قدمت عن القيام بنصره جفت نضارته ، وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ، ورفعت صلبانه ، وتلى به إنجيله
وعلا صدى الناقوس في أرجائه وخفى على سمع الورى تهليله
هذا وحقق وصف صورة حاله حقاً ، وجملته ، وذا تفصيله
وكفالك يابن الأكرمين بأنه أضحى عليك من الورى تمويله
حقيق رجاء فيك ، يامن لم يحب أبداً لراجي جوده تأميله
واذخر ليوم البعث فعلا صالحا الله ضامن أجره وكفيله

ولكنه برغم الجهود التي بذلها الكامل في جمع جيشه البعثر ، ومهاجمة الصليبيين ، وحرق جسورهم ، وإتلاف آلات حصارهم ، ظل الحصار مضروباً على المدينة ، وبدأ الجوع يفعل فعله في أهلها ، فلم يبق من حاميتها التي كان يقدر عددها بخمسين ألف رجل سوى أربعة آلاف ، بينما كانت الإمدادات تتوالى بكثرة على الصليبيين .

لم يستطع أهل دمياط الجياع المهوكون القوى ، ولا حاميتهم العنيفة قتالا ، فسلمت البلد إلى الفرنج في ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ ، ودخل الفرنج دمياط ، ووضعوا السيف بدون رحمة في بقية الحامية البائسة ، وفي الناس ، حتى إنه لم يعرف عدد من قتل لكثرتهم ، ومضى الصليبيون يحصنون أنفسهم بدمياط ، ويجعلونها مقعلاً منيعاً ، وأقبل الفرنج يهرعون إليها من كل حذب ، وأصبحت دار هجرتهم .

كان لسقوط دمياط أثر بالغ في نفس المسلمين ، ومر الإسلام في فترة حرجة ، خافت لها صدور أهله ، وأعلن الكامل في مصر الجهاد العام ، وكتب إلى إخوته

وأقاربه بالشام ، يستنجد بهم ، كما أرسل إلى بغداد يسترخ بالخليفة الناصر لدين الله ، وكان الخطر عظيماً على المسلمين ، فأقبل الأمراء على مناصرة الكامل ، حتى ليقال : إنه منذ معركة عكا ، في أيام صلاح الدين ، لم تتحد الأسرة الأيوبية في جهة واحدة ، كاتحادها أمام خطر الفرنج بعد أن أخذوا دمياط . وكان الكامل قد عسكر على البر الشرق أمام طلخا ، في المنزلة التي عرفت بالنصورة ، واجتمع بها من المسلمين عالم كبير .

ظل انفرنج غاماً ونصف عام في دمياط ، يتنازعون أمرهم بينهم ، فلما قدمت عليهم الأمداد خرجوا للحرب السلطان ، وظلوا يتقدمون حتى ، وقفوا أمام النصورة ، ووجد الكامل نفسه غير مساو للقوة الجارفة التي تقدم بها الصليبيون لامتلاك مصر ، فأرسل إليهم يعرض عليهم أن يرد إليهم مملكة بيت المقدس ، وجميع ما فتحه صلاح الدين على أن يردوا إليه دمياط فحسب ، ولكن هذا العرض المفرى قوبل بالرفض من الصليبيين . وهنا رأى المسلمون أنه لا بد من القتال ، وانتشرت فرق من الجيش الإسلامي خاف العدو وحوله ، وقطعوا سد النيل ، فانفجر الماء ، وأصبح معسكر العدو كأنه بحيرة ، ووجد الصليبيون أنفسهم في شبه جزيرة ، يحيط بهم الماء والأعداء ، لا يستطيعون التقدم ولا التقهقر ، وفي ليلة حاولوا الهرب إلى دمياط ، فحال المسلمون بينهم وبينه ، وملكوا الطريق الوحيد الذي يمكن أن يسلكه الفرنج إن أرادوا العودة إلى دمياط ، فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا ، وحاولوا الزحف والقتال ، ولكنهم رأوا ما أملوه بعيداً ، فأرسلوا إلى الملك الكامل يسألون الأمان لأنفسهم ، وأنهم يسلمون دمياط بغير عوض ، ورأى الملك الكامل إجابتهم ، ورأى غيره من إخوته مناهضتهم ، واجتثاث أصلهم البتة ، فخاف الملك الكامل ، وهو رجل سياسي كأيته ، إن فعل ذلك ، أن يمتنع من بقى منهم بدمياط أن يسلمها ، ويحتاج الحال

إلى منازلها مدة ، فإنها كانت ذات أسوار منيعة ، وزاد الفريج عندما استولوا عليها في تحصينها ، ولا يؤمن في طول محاصرتها أن يقد ملوك الفريج نجدة لمن فيها ، وطلبا لثأر من قتل من أكابرهم . هذا وقد ضجرت عساكر المسلمين ، وملت من طول الحرب ، فإنها مقيمة في محاربة الفريج ثلاث سنين وأشهرها ، فتم الصلح ، وتسلم المسلمون دمياط في يوم الأربعاء ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ .

كان للمعظم عيسى أثر فعال في هذه المعركة القوية ، التي كان انتصار الفريج فيها ، إذا انتصروا ، خطرا داهما على الإسلام كله : فقد أراد العادل في أول الأمر أن يشغل الفريج ، ويدفعهم إلى القتال في جبهتين ، فبعث بالمعظم إلى الساحل ومعه جند الشام ، ليكون في مقابلة الفريج ، حتى يشغلهم عن اللحاق بإخوانهم في دمياط ، ولم يلبث المعظم أن التقى بالفريج ، وقاتلهم ، وانتصر عليهم ، وأسر منهم طائفة ، أدخلهم القدس منكسبي الأعلام ، وكان ذلك سنة ٦١٥ هـ .

ولما مات العادل أسرع إلى أخيه الكامل ، ملبيا نداءه ، عندما استنجد بإخوته أن ينصروه ، وكان للمعظم أثره في إنقاذ عرش أخيه الكامل ، كما سبق أن ذكرنا ، وبهذا نجحت البلاد فتنة ، كانت جديرة أن تودي بها ، وأن تحطم قواها في خلاف داخلي ، يدع للعدو الفرصة لامتلاك البلاد .

ولما سقطت دمياط بكمي الكامل والمعظم بكاء مرا ، ثم قال الكامل لأخيه المعظم : قد فات المطلوب ، وجرى المقدر بما هو كائن ، وما في مقامك ها هنا فائدة ، والمصلحة أن تنزل إلى الشام ، تشغل خواطر الفريج ، وتستجلب العساكر من بلاد الشرق . قال سبط بن الجوزي : فكتب المعظم إلى ، وأنا بدمشق كتابا بخطه ، يقول في أوله : قد علم الأخ العزيز بأن قد جرى على دمياط ما جرى ، وأريد أن تجرض الناس على الجهاد ، وتعرفهم ما جرى على إخوانهم أهل دمياط ، من الكفرة أهل العناد . قال السبط : جلست بجامع دمشق ، وقرأت كتابه

عليهم ، فأجابوا بالسمع والطاعة ، وقالوا نمتثل أمره على حسب الاستطاعة ، ومضى المعظم إلى الساحل فافتتح بعض بلاده من يد الفرنج ، ثم مضى إلى أخيه الأشرف يطلب منه أن ينجده أخاه الكامل بمصر ، قال سبط ابن الجوزي : « كان المعظم أحرص الناس على خلاص دمياط والغزاة ، وكان مصافياً لأخيه الكامل ، وكان الأشرف مقصراً في حق الكامل ، مبايناً له في الباطن ، فلما اجتمعت المساكر على حران قطع بهم المعظم الفرات ، وسار الأشرف في آثاره . . . فاجتمعت بالمعظم . . . فقال لي : قد سحبت الأشرف إلى هاهنا ، وهو كاره ، وكل يوم أعتبه في تأخره ، وهو يتكاسل ، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر . وهو صديقتك ، وأشتهى أن تقوم تروح إليه ، فقد سألتني عنك مراراً ، ثم كتب إلى أخيه كتاباً بخطه نحو ثمانين سطراً ، فأخذته ومضيت إلى سلميه ، وبلغ الأشرف وصولي ، فخرج من الخيمة ، وتلقاني ، وعاتبني على انقطاعي عنه ، وجرى بيني وبينه فصول ، وقلت له : المسلمون في ضائقة ، وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضر موت ، وعفوا آثار مكة والمدينة ، والشام وأنت تلعب ، قم الساعة وارجل . . . وسبقته إلى حصص ، فتلقاني المعظم ، وقال : ما نمت البارحة ، ولا أكلت اليوم شيئاً ؛ فقلت : غدا يصبح أخوك الأشرف حصص .

ومن ذلك يبدو لنا جهد المعظم وحرصه على جمع الكلمة ، وغيرته على استخلاص دمياط وإنقاذ مصر من أيدي الفرنج .

ولما سقطت دمياط بلغه أن الفرنج عازمون على أخذ القدس ، فزعم على تخريبه ، فقد رأى الأمراء أن الشام قد خلا من الجند ، وأن الفرنج إذا أخذوا القدس حكموا على الشام جميعه ، فضى المعظم يخربه ، حتى لا يسقط غنيمه في يد الفرنج ، وتشكر مأساة فتحه التي وقعت في أول عصر الحروب الصليبية ، فخربت

أسوار المدينة وأبراجها ، وخرج معظم من كان في القدس من الناس ، ولم يبق فيه إلا عدد يسير ، ونقل العظيم ما كان في القدس من الأسلحة وآلات القتال .

ومضى العظيم عيسى مع أخيه الأشرف لتجدة أخيهما الكامل ، وانتصر المسلمون على الفرنج ، ودخل الكامل دمياط بجنده وأهله ، وكان لذلك رنة فرح عمت أرجاء العالم الإسلامي .

واتفق أنه لما رحل الفرنج ، اجتمع في ليلة عند الملك الكامل أخواه : العظيم عيسى ، والأشرف موسى ، في حالة أنس ، فغنت جارية الأشرف ، مشيدة بجهود صاحبها ، وغنت جارية الكامل مشيدة بجهود صاحبها كذلك ، ثم نهض القاضي الأجل هبة الله بن محاسن ، قاضي غزة ، وكان في جملتهم ، وأنشد :

جباناً إله الخلق فتحا لنا بدا	مبيناً ، وإنعاماً ، وعزاً مجدداً
تهلل وجه الدهر بمد قطوبه	وأصبح وجه الشوك بالظلم أسوداً
ولما طغى البحر الخضم بأهله	الطغاة ، وأضحى بالزراكب مزبداً
أقام لهذا الدين من سل عزمه	صقيلاً ، كما سل الحسام مجرداً
فلم تر إلا كل شاول مجدل	ثوى منهم ، أو من تراه مقيداً
ونادى لسان الكون في الأرض رافعاً	عقيرته في الخافقين ومنشداً
أعباد عيسى ، إن عيسى وحزبه	وموسى جميعاً ينصران محمداً

وسجل الشعراء دور الملك العظيم في هذه الحملة ، وأشادوا به ، كما ستحدث عن ذلك فيما يلي . وكان العظيم يذكر هذه المعركة ، ويرجو أن ينال عليها جزيل الثواب من الله يوم اللقاء ، فكان يقول : لي عند الله تعالى في أمر دمياط ما أرجو أن يرحمني به .

ولم يتصل العظيم عيسى بالفرنج في معركة دمياط فحسب ، بل هزمهم على

القيمون ، وهو حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين . فلما شاع عزم الفرنج على أخذ بيت المقدس جهزه أبوه العادل بطائفة من الجند إلى نابلس ، كي يحول بين الفرنج وأخذ القدس .

وكان دائم الاستعداد للاقاة الفرنج ، يرسل عليهم جواسيسه ، لينبثوه بأخبارهم ، قال سبط ابن الجوزي : كان في أيام الفتح مع الفرنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس إلى عكا ، وعلى عكا جبل قريب منها يقال له : الكرمل ، كان عليه المنورون ، وبهم وبين الجواسيس علامات ، وكان له في عكا أصحاب أخبار ، وأكثرهم نساء الخيالة ، فكانت طاقاتهم في قبالة الكرمل ، فإذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطائفة ، فإن كان يخرج مائة فارس أو قوت المرأة شمة واحدة ، وإن كانوا مائتين شمتين ، وإن كانوا يريدون قصد خوران أو ناحية دمشق أشارت إلى تلك الناحية ، وكذا إلى نابلس ، فكان قد ضيق على الفرنج الطرق ، وكان يعطى النساء والجواسيس في كل فتح جملة كثيرة ، فقلت له في بعض الأيام : هذا إسراف في بيوت الأموال ، فقال : « ... أنا أئدى المسلمين بالشئ اليسير ، وأحفظ الخطير بالحقير » وروى عن والي الشوبك أنه قال : « كنت والياً بالشوبك ، وكان بها راهب منفرد في بعض الجبال ، فجاءني كتاب المعظم بنفقيه ، فنفيته ؛ فغاب سنة ، وجاءني بكتاب المعظم ، يقول : أعده إلى مكانه ، وتوص به ، فبحث عن قصته ، وإذا به قد بعث به إلى البحر وكشف له أخبار (الأنبرور) على وجهها . وإنما نفاه حتى لا يتهم ، وأطلق له أرضا يعيش منها ، وأعطاه مائة دينار .

وكان صليبالا يابن للفرنج ، قدم عليه سنة أربع وعشرين وستمائة رسول الامبراطور قردريك الثاني يطلب منه البلاد التي كان قد فتحها عمه صلاح الدين ، فأغلظ له في القول ، وقال : « قل لصاحبك : ما أنا مثل الغير ، ما له عندي إلا السيف »

والمعظم يقصد بالغير هنا أخاه الملك الكامل الذى عقد مع هذا الامبراطور نفسه معاهدة يسلم له بمقتضاها مدينة القدس ، وكان لهذه المعاهدة أثرها السيئ فى المسلمين ، ومات المعظم قبل أن يرحل الإمبراطور إلى بيت المقدس ، ولو أنه عاش فربما لم يكن الامبراطور قد نجح فى أخذ بيت المقدس ، على أن ابن المعظم هو الذى استرد القدس كما سنرى .

ومن ذلك يتبين أن أهم ما أبلى فيه المعظم الياء الحسن هو معركة دمياط ، وكان لها أثرها البالغ فى الشعر الذى مدح به ، وخلد ذكره .

أخلاقه

كانت ديمقراطية الملك المعظم من أكبر ما استرعى أنظار معاصريه ومؤرخيه ، فقد راعهم أن يمشى فى الأسواق والطرق لا تصحبه مظاهر السلطان ، ولا أبهة الملك ، وأن يروه ببيت المقدس فى الجامع الأقصى يراهم الرجال والنساء والصبيان ، ولا يردم أحد عنه ، وقد نشأ منذ صغره على هذه الديمقراطية فأبناؤه يسمون إلى أساتذته ، ويجلس مع الطلبة بين أيديهم ، وقرأنا كتابه إلى سبط ابن الجوزى يدعو فيه بالآخ . وشاعت ديمقراطية المعظم بين الناس ، حتى ضربوا به المثل فيها ، ومدحوه بها ، وراوه نمطا وحده بين أبناء أمرته . والواقع أن شخصية المعظم المستقلة كان لها من الاعتداد بالنفس ، ما دفعه إلى أن يمتنق ما يراه صوابا ، وإن خالف تقاليد أمرته ، فاختار مذهب أبى حنيفة ، ولم يكن فى أمرته حنفى سواه ، وشجع دراسة الفلسفة ، ولم يكن من إخوته مشجع لها ، مما يدل على شخصية مستقلة ، تتبع ما تراه ، ولا تنقاد .

ومما سجله له مؤرخوه ، ويتصل شديد الاتصال بهذه الديمقراطية تواضعه ، وحفظه لمودة صفيه وأصدقائه ، وفى قصة زيارته لابن عنين عندما أرسل إليه يخبره

بمرضه واحتياجه إلى المال ما يدل على هذه الصفة أعظم الدلالة ، وقد روينا ذلك فيما مضى .

كما يتصل بذلك أيضاً حسن عشرته ، ورقة معاملته ، حتى ليظن واقعاً ، بعد أن التقى بأخيه الكبير الكامل محمد ، فكان ذلك نوعاً من التأدب سر منه الكامل محمد وابتهج له .

وكان يتأثر بالوعظ ، ويرق قلبه له ، حتى اتقيض عينه بالبكاء ، قال سبط ابن الجوزي : كان يحضر مجلسي بجامع دمشق ، وبالقدس ، ويبكر إلى الجامع ، فيقدم عند المنبر الذي عند باب المشهد بين العامة ، فلما رجع من الحج في سنة ٦١١ هـ ، حضر مجلسي بجامع دمشق ، فأنشد قصيداً لجدي رحمه الله ، يقول فيها :

سلام على الدار التي لا تزورها على أن هذا القلب فيها أسيرها
من آيات ؛ فلما فرغ من القصيدة بكى ، وزاد بكاءه ، تخفت عليه ، لا يفتضح بين الناس ، فقلت : « لا نسي الله موافك في رضائه ، وسهرك الليالي في جهاد أعدائه » .

وكان شجاعاً ، هزم الفرنج غير مرة ، وخرب مدناً لهم وحصنونا كثيرة في الساحل ، وجمع إلى هذه الشجاعة تحمساً في لقاء العدو ، ومقدرة على تعبئة الجيوش وتنظيمها ، وعناية بأمر الجند ، واهتماماً بشئونهم ، حتى برز إخوته في ذلك كله ، وكان أعظمهم مهارة ومقدرة .

بيت في الأمور مسرعاً ، ويتجمل لما يعترضه من الصعاب ، حتى يتغلب عليه ، في سرعة ومهارة معا ، وقصته مع ابن المشطوب التي رويناها فيما مضى مثال صدق ، يدل على أنه معروف بهذه الصفة ، حتى استنجد به أخوه عند ما قدم إليه ، فأوحي إليه خاطره بالحل السريع الموفق ، ولم يلبث أن نفذه ، فأنقذ أخاه ، وأقدم مصر والإسلام .

وأكسبه ذلك رغم ديمقراطيته هيبية ، يشمر بها جلساؤه ، وتدفعهم إلى إجلاله وحبه معاً .

أما صلته بشعبه ، فيبدو أنه كان رفيقاً برعيته ، محسناً إليهم ، ويدل على ذلك ما قوبل به نبأ وفاته من هلع وجزع ، فقد جرى على الرعية في وفاته ما لم يمر عند موت أحد من الملوك ، وشارك في البكاء عليه نساء الشعب ورجاله ، فقد ظل الجميع يبكونه في الليل والنهار ، ولا يكون ذلك إلا إذا شعر الشعب بخسارة عظيمة ألت به .

ويظهر أنه كان مولعاً بالمعارة ، ففضلاً عن المدارس التي أنشأها ، وسبق أن تحدثنا عنها ، عنى بطريق الحاج ، فهدى في مواضع كانت وعرة كثيرة الصوان ، وبني في معان حمامين للرجال والنساء ، وزرع طريق الحجاز من باب الحايبة إلى مكة ، وردم البرك وعمر المساجد ، ووجد الحجاج في ذلك رفقاً ، قالوا : لو عاش لساير الناس إلى مكة من غير دليل . وفي دمشق بنى سورها ، وخانايها . ومن مظاهر تدينه حجه إلى الحرمين بنفسه ، وإعانة غيره على الحج ، بما وقفه من ضياع بالساحل على الحاج ، وتيسيره الميرة لهم في طريق حجهم . وحرصه على الصلاة إلى آخر أيام حياته .

ويكاد مؤرخوه يجمعون على وصفه بالتدين ، ولم أر مؤرخاً غمز تدينه إلا مازعه بعضهم من أنه كان في شبابه منصرفاً إلى اللهو ، ونشك في هذا الزعم ، ويؤيد شكنا فيه ، ما أثبتته المؤرخون من عنايته المبكرة بالعلم ، واتخاذ بطانة من صفوة مفكرى عصره ، مما يرجح لدينا بعمده منذ الصبا عن ملاهى الشباب الآثمة . ولم يأخذ عليه مؤرخ ما يحسب عليه بعد أن ألقيت إليه مقاليد الحكم ، اللهم إلا حبه لشرب النبيذ ، ومع حبه له أراد أن يصبغ بإباحة شربه باسم الدين ، فطلب من بعض علماء دمشق أن يفتى بإباحة النبيذ ، فأبى . وإن كنا لا نقر للمظم على معاملته لهذا الرجل الذي أبى الإفتاء فقد عزله من منصبه .

وكان حبه للنبيذ ، وتخريبه بيت المقدس سببا في إثارة الشعر ضده ، وذمه إياه ،
فقد كان القدس مهوى أفئدة المسلمين ، والهدف الذي يقصدون إليه من ردِّهم
الصليبيين عن بلادهم . ومما بقى لنا من هذا الشعر الذي هجا المعظم قول بعضهم :
في رجب حلل الحما وأخرب القدس في الحرم

وفي هذا البيت مبالغة ، لأن المعظم لم يحلل الحرم ، وإنما أباح لنفسه شرب
النبيذ ، وفي شرب النبيذ خلاف بين الشافعي وأبي حنيفة ، فبينما يحرمه الأول ،
إذا بالثاني يبيح شربه .

وقال مجد الدين محمد بن عبد الله في خراب القدس :

مررت على القدس الشريف مسلما على ما تبقي من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين منى صباية على ما مضى من عصرنا المتقدم
فقلت له : شلت يمينك ، خلها لمعتبر ، أو سائل ، أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته بنفسى ، وهذا الظن في كل مسلم

وهو شعر ناطق بالنقمة على تصرف المعظم . وكان المعظم مظلوما بهذا الهجاء ،
فإنه لم يخرب بيت المقدس رغبة في هذا التخريب ولا حبا له ، ولكن دفعت إليه
الضرورة دفعا ، فقد خاف أن يستقط محصنا في أيدي الفرنج ، فيجد المسلمون عمقا
من تملكهم المدينة ، ويكون ذلك تهيدا لاستيلاء العدو على الشام كله . ولم يقدم
المعظم على تخريبه إلا بعد أن اجتمعت كلمة الأمراء على هذا التخريب .

ولا ينبغي أن نختم هذا الفصل إلا بعد ذكر تسامحه ، وترك الفرصة للذنب
إذا أبدى رغبة في التوبة وعزما عليها . روي أن قاطع طريق يدعى (قنديل)
اشتهر ساعده بين بيسان وأريحا ، فتعرض للمعظم نفسه عند ما خرج من دمشق
يريد بيسان ، فتمكن المعظم من القبض عليه ، ومضى به إلى القدس ، وأمر أن
يشنق . ولكن (قنديلا) تقدم إليه في شجاعة قائلا : هل لك أن تستيقظني ، أحمي

ببلادك ، وأجاهد الكفار بين يديك ، على أن تستحلفني ، وأقسم لك على أن أفي بوعدي . فأراد المعظم أن يمهّد له طريق التوبة ، وأن يستفيد من شجاعته وبسالته ، وأن يكون قوة في يده ، نخلع عليه ، واستحلفه ، وأطلقه ، فنزل إلى النور ، وأقام به هو ورجاله حرساً له ، فأمنت الطريق ، وحفظت الأموال ، وفي إحدى المارك مع الفرنج جاهدتم جهاداً عظيماً ، وقتل منهم جماعة ، حتى استشهد .

أدبه

أغرم المعظم بالعلم والأدب ، أحاط نفسه بحاشية من أهلها ، وكان يقعد في كل ليلة جمعة ، ويجلس عنده القضاة ، والعلماء ، والفقهاء ، والشعراء ، وأرباب الفنون ، ويتباحثون ويستدلون .

وأدرك المعظم حظاً كبيراً من الثقافة الأدبية ، جمعت قلمه مطواعاً له إذا كتب ، وقد رأيتاه في كتابه الذي بقي لنا ، وهو كتاب السهم المصيب — ذا أسلوب واضح ، وعبارة بيّنة ، وتلك أيضاً هي سمة الأثر الأدبي الباقي له ، وهي الرسالة التي أرسلها إلى سبط ابن الجوزي ، وقد أوردناها فيما مضى .

وكانت ثقافته الأدبية تدفعه إلى أن يتمثل بالشعر ، في مواطن التمثيل به ، كما رأيتاه عند ما التقى بأخيه الكامل في الإسكندرية ، فترجلاً واعتنقاً ، ثم بقي واقعياً بعد أن ركب أخوه الكامل ، فلما أشار إليه بالركوب ، أشار المعظم إلى الفرس الذي تحته ، وأنشد :

وإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
فأطرب ذلك الكامل .

ولم يقنع المعظم ما ناله من الثقافة الأدبية ، بل أراد أن يضع اسمه في سجل الشعراء ، فغضى بقرض الشعر ، حتى صار له فيه ديوان ، ولعله بذلك كان يريد أن

يؤكد انحداره من أصل عربي ، فإنه على ما يظهركان مشغوقاً بأن يثبت نسبه إلى العرب ، ويدلنا على ذلك أن رجلاً في عصره يدعى الحسن بن غريب بن عمران الحرسي ، وضع مدرجاً أثبت فيه أن الأسرة الأيوبية ، تنحدر من أيوب بن شاذي ابن مروان . . . ومضى يعد الآباء حتى انتهى إلى مضر بن زرار بن معد ابن عدنان ، ثم رفع هذا النسب إلى آدم عليه السلام . وجعل من آباء الأسرة على بن أحمد بن أبي علي ، ممدوح المتنبى ، والمعروف بالخراساني ، وهو الذي يقول فيه المتنبى من قصيدة :

شرق الجو بالغبار إذا سا ر علي بن أحمد القمقام
وجعل من الآباء أيضاً الحارث بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحالة ، فهو الذي حمل الدماء بين عبس وذبيان ، وشاركه في الحالة خارجة ابن سنان أخو هرم بن سنان ، وفيهما قال زهير بن أبي سلمى قصائد كثيرة ، منها قوله :

وهل يثبت الخطي^(١) إلا وشيجه^(٢) وتفرس إلا في منابتها النخل

وقد قدّم الحسن بن غريب هذا مدرجه إلى الملك المعظم ، وسمعه عليه هو وولده الناصر داود ، وكتب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وسبائة . وهذا يدل على ما كان يمتلج في نفسه من رغبة في أن يكون منحدراً من أصل عربي ، وقد يكون لهذه الرغبة دوافع شتى : منها أن الناس لا يذكرون للأسرة جداً بعد شاذي ، ولما كانت العرب تبهم صاحب هذا الدين الذي يقف نفسه للدفاع عنه لم يجد حرجاً في أن يحسب نفسه منهم ، ومنحدراً من أشرافهم الذين كان لهم مجد في الإسلام ومجد في الجاهلية ، بل لم يرض إلا بأن ينتهي نسبه بما ينتهي به نسب صاحب هذا الدين ، وهكذا أشبع الحسن بن غريب رغبة مليكه ،

(٢) الوشيح : شجر الرماح

(١) الخطي : الرمح .

فقدم إليه هذا النسب ، مع أن جمهور المؤرخين يذكرون أنهم لا يعرفون للأسرة الأيوبية أباً بعد شادى .

أما الملك الأجدد الحسن بن الناصر داود بن العظيم عيسى ، فقد أنكر في كتابه : الفوائد الدرية في الفرائد الناصرية — انحدارهم من الأكراد ، مؤكداً أن جدهم أيوب بن شادى عمرى نزل بهذه القبيلة الكردية ، وتزوج منها ، فصارت بينهم وبين الأكراد خثولة ليس غير ، كما كان بينهم وبين الأتراك خثولة أيضاً ، فإن أمهات جماعة من أسلافهم كنن تركيات . ويستدل الملك الأجدد على دعواه بأن صلاح الدين عندما تم إشراق شمس له لم يعرف أن كردياً من ناحية أبيه كان له به اتصال ، وإنما كان أقاربه من الأكراد يمتنون إليه بوساطة الأم ، فلو أن أقاربه من ناحية أبيه كانوا أكراداً ، لأقبلوا عليه ، وانتهزوا هذه الفرصة التى سبغت لهم ، ليظفروا بنصيب من المجد والسلطان ، فلما لم يجد كردياً قد اتصل به من ناحية أبيه ، دلنا ذلك على أن أقاربه من ناحية أبيه لم يكونوا من هذه القبيلة الكردية . وقد أطلال الملك الأجدد في الحديث عن هذا النسب وتحقيق عريته .

كان العظيم إذاً ممن يؤمنون في قرارة نفوسهم بتفوق العنصر العربى ، فأقبل على ثقافة ينهل منها ، ويبغى أن يتفوق فيها ، ويكون له نصيب في أهم مظاهرها ، وهو الشعر ، وبرغم أنه كان في بعض الأحيان لا يكاد لسانه يقيم وزن البيت أبى إلا أن يكثر من الإنتاج الشعرى حتى صار له كما قال مؤرخوه — ديوان ، لم يبق لنا منه إلا قليل لا يشفى الغليل ، منه في الغزل قوله :

يا درة الغواص ، بل يا ظبية القنص ، بل يا دمية المحراب
عادت فيك عصابة كانوا على قرب الديار وبمدها أحبابى

وقوله :

أحن إليكم ، ثم أسأل عنكم وماؤاكم قلبي ، فقيم سؤالي !
فإن قلت لم ينطق بغيركم في وإن تمت كنتم في المنام خيالي
وقد خانه التوفيق في استخدام كلمة عصابة ، فقد صارت مقترنة في الذهن
بجماعة الأشرار . أما معني الحنين إلى الأحباب ، والسؤال عنهم برغم أنهم يسكنون
الفؤاد ، فقد أوضحه قبله القاضي الفاضل عندما قال :

ومن عجب أني أحن إليهم وأسأل عنهم من أرى ، وهم ممي
وتطلبهم عيني ، وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي
ومن شعره الذي يدل على أبهة الملك قوله :

هجم الشتاء ، ومحن بالبيداء فدفعت شرته بصوت غناء
وجمت قافات يزول بجمعها هم الشتاء ولوعة البرحاء
قدح ، وقانون ، وقاني قهوة مع قينة ، في قبة زرقاء
وفضلا عن دلالة الشعر على ترف الملك يدل على ثقافته ، فقد جمع
بعض الشعراء كافات الشتاء .

ومن شعره حين مات والده :

يقول أناس يملكون فضائي وعظم ارتياحي للمكارم والمجد :
ألا تحضر المرحوم في حال دفنه فقلت ، ولي قلب يفتت بالوجد :
خشيت أرى الإسلام والملك والملا وبذل الندي والحلم يودع في اللحد

وكان المعظم في امتناعه عن حضور دفن والده أكثر شاعرية منه في شعره
هذا ، فلا صلة بين علم الناس بفضائله وعظم ارتياحه للمكارم والمجد وبين الامتناع
عن حضور دفن الوالد . كما أن الشطر الأول من البيت الثاني ذو أسلوب عامي رعا

أراد به المعظم حكاية ما قيل . أما البيت الثالث فأقوى الآيات من حيث دلالاته على ما يحمله المعظم لأبيه من تقدير وإجلال .

ومن شعره ، وقد مرض بالحمى :

زارت ممخضة الذنوب ، وودعت نبأها من زائر ومودع
باتت معانقتي ، كأني جها ومقبلها وميبتها في أضلئ
قالت ، وقد عزمت على ترحالها : ماذا تريد ؟ فقلت : ألا ترجى

أما أطول قصيدة بقيت لنا من شعر المعظم ، فهي التي أرسلها إلى أبيه الملك العادل ، عند ما كان هذا مقيماً بالإسكندرية ، سنة اثنتين وستمائة ، كتبها متشوقاً إليه ، راجياً أن يزوره ، وأن يمود إلى الشام ليقمع العدو الرابض بها ، ويعرض بذكر مصر وشدة حرها ، ويقول :

رؤ رماحك من دماء عداكا واركب خيولا كالسعالى ^(١) شرباً ^(٢)
واجلب من الأبطال كل سميدع ^(٣) وافرى ^(٤) بمزك كل من يشناك ^(٥)
واسترعف ^(٦) السممر ^(٧) اللدان ، وروها واسق النية سيفك السفاكا
وسر الغداة إلى العداة مبادراً بالضرب فى هام العدو دراكا
وانكح رماحك للثغور ، فإنها مشتاق أن تبتنى بملكا
فالمر فى نصب الخيام على العدا تردى الطغاة ، وترفع الملاك
والنصر مقرون بهمتك التى قد أصبحت فوق السماك ^(٨) سماكا

(١) السعالى : جمع سعالاة وهى القول أو ساحة الجن .

(٢) شرب : جمع شارب ، وهو الضامر .

(٣) السميدع : السيد الكريم الفريف ، والشجاع .

(٤) افرى : يشق .

(٥) شنأه : أبغضه .

(٦) رعف : خرج من أنه الدم .

(٧) السممر : الرماح .

(٨) السماك : نجم .

فإذا عزمت وحدت من هو طائع
والنصر في الأعداء يوم كريمة
والمعجز أن تمسى بمصر نجيا
فأرح حشاشتك الكريمة من لظى
فلقد غدا قلبى عليك بمجرة
وانهض إلى راجى لفاك مسارعاً
وإذا نهضت وحدت من يخشاك
أحلى من الكأس الذى رواءك
وتخل من تلك المراض عراك
مصر ، اكى تحظى الفداة بذاك
شفقاً ، ولا حر البلاد هناك
فنأى من كل الأمور لقاك
وأعد عليه العيش من رؤياك
أضحى مناه من الحياة مناك
ملك الملوك ، وقارن الأملاك
وجملت فى كل الأمور فداك

وقد قولت هذه القصيدة عند ما تلئت على الحاضرين من حاشية العادل
بالإعجاب والإكبار ، « وأخذوا فى استحسان نظامها ، وتناسق غريب الثامها ،
والفناء على الخاطر الذى نظم محكم أبياتها ، وأطلع من مشرق فكره آياتها » ،
ومن الطبيعى أن تقابل القصيدة فى حضرة العادل والد منشها هذه المقابلة المليئة
بالاستحسان ، وإظهار الإعجاب . والواقع أن القصيدة على حظ كبير من الجودة
وإن خافه التوفيق فى التعبير عن بعض معانيه ، كما فى قوله : « واسق النية
سيفك السفاكا » ، ذلك أن السيف لا يسقى النية ولكنه يسقىها الأعداء .
وكنايته فى إنكاح الرماح للثغور كانت مقبولة فى عصره ، ولكنها ممجوجة فى
أيامنا هذه ، والدوق السليم لا يقبلها . كما أن المقابلة الطبيعية التى كان المعنى
يطلبها قد أفلتت منه فى قوله : « تردى الطغاة ، وترفع الأملاك » ، إذ الطغاة
يقابلهم العدول القسطنطين . وكان استخدام اسم الإشارة غير موفق فى قوله .
« وتخل من تلك المراض عراكا » ، يشير بها إلى الشام التى فقدت حين غادرها

العادل المراك مع العدو . وفي قوله : « . . . لكي تحظى الغداة بذاكا » ، ولا مرجع له في الكلام ، وربما أشار به المعظم إلى جو الشام الرقيق في الصيف ، في الوقت الذي تلتظي فيه حرارة مصر . ولكن فات المعظم أن والده كان يقيم يومئذ بالإسكندرية عروس البحر ، ومهوى الصائفين .

وتسرب إلى شعره أسلوب عاى في قوله : « ولا حر البلاد هناك » . واستخدم الرؤيا مكان الرؤية ، والأولى تكون في النوم ، والشاعر لا يريد ، ولكن يريد رؤية اليقظة .

كما أخطأ في استخدام الأملاك ، إذ ظنها جمع (ملك) ، بينما هي جمع (ملك) . ولكن برغم ذلك كله نجد القصيدة جيدة ، نضعها في الصف الأول بين أشعار الملوك .

وقد أراد العادل عند ما وردت هذه القصيدة أن يجيب عنها أبيات من وزنها ، وعلى قافيتها . وتولى ذلك على بن ظافر صاحب كتاب بدائع البدأه ، ف نظم مسرعا قوله :

وصلت من الملك المعظم تحفة	ملأت بفاخر درها الأسلاك
أبيات شعر ، كالنجوم جلالة	فلذا حكمت أوراقها الأفلاك
عجبا ، وقد جاءت كمثل الروض ، إذ	لم تزوها بالحر نار ذكاكا
جلت الهموم عن النؤاد ، كمثل ما	تجلو بغرة وجهك الأحلاك
كقميمص يوسف إذ شفت يعقوب	رياه ، شفتي مثله رياكا
قد أعجزت شعراء أهل زماننا	حسنا ، فلم لا تمجز الأملاك
ما كان هذا الفضل يمكن مثله	أن يحتويه من الأنام سواكا
لم لا أغيب عن الشام ؟ وهل له	من حاجة عندي وأنت هناك ؟!
أم كيف أخشى ، والبلاد جميعها	محمية في جاء طمن قفاكا

يكفى الأعادى حر بأسك فيهم
ما زرت مصر لغير ضبط ثغورها
أم البلاد علا عليها قدرها
طابت ، وحق لها ، ولم لا ، وهي قد
أنا كالسحاب : أزور أرضا ساقيا
مكنى جهاد للعدو ، لأننى
لولا الرباط وفضله لقصدت بالسـ
ولئن أتيت إلى الشام ، فأنما
إنى لأمتحك المحبة جاهدا
فانخر ، فقد أصبحت بى وبياً
لا زلت تقهر من يعادى ملكنا
وأعيش أنظر إبنك الباقي أبا

أضماف ما يكفى الولى ندا كا
فلذا صبرت ، فديت ، عن رؤيا كا
لا سيما مذ شرفت بخطا كا
حوت الملى فى الفخار أخا كا
حيناً ، وأمنع غيرها سقيا كا
أغزوه بالرأى السديد درا كا
ير الحثيث إليك نيل رضا كا
يحتنى شوقى إلى لقيا كا
وهواى فيما تشبهه هوا كا
سك الحامى ، وكل مملك يخشا كا
أبدا ، ومن عاداك كان فدا كا
وتعيش تخدم فى السمود أبا كا

وقد أعجب العادل بهذا الرد ، حتى لقد فاضت عيناه بالدمع عندما بلغ المنشد
آخر قصيدته ، والظاهر أنها عبرت عما يحس به نحو ابنه العظيم : من تقدير أشغره
وذكائه ومقدرته على الدفاع عن بلاده .

وكان العظيم يرى أحياناً أن يرد على الشعر بالشعر ، ذكروا أن العظيم كان
نازلاً مرة بنابلس ، وفى معسكره بهاء الدين نصر بن محمد القيسرانى ، وبعث العظيم
جماعة من عسكره ، فأغاروا على مدينة قيسارية من الساخل ، وكانت يومئذ بيد
الفرنج ، فأسروا وقتلوا ، وعادوا مظفر بن منصور بنى ، ومعهم من ثمار قيسارية
أترج كثير وليون ، فأمر العظيم بملء طبق كبير من ذلك الليمون والأترج ،
وحمله بعض العلماء إلى بهاء الدين بن القيسرانى ، فلما وصلت الهدية كتب إلى
العظيم يقول :

يأيتها الملك العظيم ، والذي أوليتني نعماً ، إذا أظهرتها
فليهنك اليوم الذي قد أطلعت فيه الكئوس كواكباً وشموساً
أضحت له الدنيا تزف عروساً للناس أظهر حاسدوها بوساً
فكتب إليه العظيم :

يا من تفرد بالفضائل دائماً لازلت في درج الكارم راقياً
أبداً يؤسس مجدها تأسيساً تملو ، وربك بالثنا مأنوساً
فكتب إليه ابن القيسراني :

مدح بمدح يستطاب ، ولا أرى ما بين ذنبك درهما وفلوساً
فأرسل إليه العظيم كثيراً من الخلع والثياب والحنطة والشعير ، حتى كانت
قيمة الجميع تناهز ألف دينار مصرية .

هذا ، ويظهر أن العظيم عند موت ابن له ألبم الحادث الشديد لسانه ، فلم
يستطع رثاءه ، وطلب إلى ابن عنين أن يقوم هو بمهمة الرثاء ، وقد نهض ابن عنين
بما طلب منه ، كما سنرى في فصل مقبل .

وكان العظيم كشمراء عصره ممن يعجبهم الزخرف والصناعة في العبارة ،
قالوا : كان كثيراً ما ينشد هذا المقطوع :

ومورد الوجنات ، أغيد ، خاله بالحسن من فرط الملاحاة عمه
كحل الميون ، وكان في أجفانه كحل ، فقلت : سقى الحسام ، وسمه

وبعد ، فإن شعر العظيم كان جديراً أن يطلعنا على الكثير من خلجات قلبه ،
وأمانى نفسه ، وما مر به في الحياة من ضروب السعادة ، وأسباب الألم ، غير أن
ديوانه قد فقد ، كما فقد الكثير من دواوين أبناء عصره ، وبقيت هذه القطع

القليلة ، وهى تدلنا برغم قلتها على أن المعظم لا يتخلف فى شعره عن الملوك الذين روى لهم التاريخ شعراً .

وقد ورثه فى حب الشعر وقوله ولده الناصر داود ، وحفظ له الزمن ديواناً لا يزال باقياً بين أيدينا ، وسوف نتحدث عن ذلك عند الحديث عن الناصر بن المعظم .

الشعر بمدحه

أقبل كثير من الشعراء على الملك المعظم ، بمدحونه ، ويطرزون شعرهم باسمه ، واشترك فى ذلك أعظم شعراء عصره وكتابه ، عرفت من بينهم القاضي الرئيس جمال الدين بن شيث ، صاحب ديوان إنشائه ، وقد بقى من مدحه للملك المعظم قصيدة أطال فيها الغزل ، وليس فيها من المدح سوى بيت واحد ، ولست أدري إن كان ابن شيث قد اقتصر فى المدح على هذا البيت ، وكان يهدف إلى إشباع رغبة المعظم فى الغزل ، أو أن المدح قد فقد من القصيدة ولم يبق منها سوى الغزل والبيت الذى نخلص به إلى المدح . والقصيدة هى :

ما لقلبي إلى السلو طريق	أنا من سكرة الهوى لا أفيق
ضحكوا يوم بينهم ، وبكىنا	فتراءت سحائب وروق
لو ترانا ، وللمطالب إخفا	ق إلينا ، وللقلوب خفوق
لأيت الدليل حيرات منا	كلما لاح لللال شروق
وسهام اللحاظ قد فوقت لى	فلها كلما رمقت مروق
لست أدري إذ أضرم اللثم وجدى	أحريق رشفته أم رحيق
ليدعنى أهل الرشاد وشأنى	ليس يدري ما بالأسير الطليق
أقفرت دار من أحب ، وكم كا	نت رفاق بها ، وغصن وربق
وهفا ثوبها الصفيق ، والذر	يح عليها من حسرة تصفيق

دار لهوى ، وللهوى فى منا
أشبهتنى تلك الديار ؛ فجسمى
وكان الثياب لفظ ، وجسمى
ورشيق القوام يرشق بالحظ
لحظه قاطع ، وما فارق الجفن
مشقت نون حاجبيه ، فأبدى
لامه فى أصداغه لامة ، وال
فقد خط حسنه ، وهو مذ
أحدق الحسن بالحدائق من خد
مسحة للجمال مسح بركن
وكان انخال الذى لاح فى لج
طابق الحسن قد بهقواق الش
يردف الردف ، وهو مختمه الخص
فائق الظرف ، فانك الطرف عمدا
يا خليلي ، إن العدو كثير
والرفيق الذى يؤمل منه الز
وبسوق الموان يبتدل الفض
فسد الناس والزمان ، ولا بد
فالكريم الذى يفيث يفيث
غير أن الملك العظيم فرد

نبا عروق تنمى ، ووجد عريق
دارى ، ودمع عيني العقيق
فيه معنى من المعنى ، دقيق
ولا يستقل منه الرشيق
وفى جفنه عن السيف ضيق
ألف الحسن قد المشوق
ميم فوه ، والرق منه الرقيق
شور ، وأخلاقه عليه خلو
يه ، لما آذاها التبحر
ها وخذ له الشقيق شقيق
ة خديه ، طاف غريق
مر ، فيه التجنيس والتطبيق
مر : فذا مقم ، وهذا دقيق
وهو فى كل حالة معشوق
فاحذر نه ، وأين أين الصديق
فق قاس ، فما رفيق رفيق
ل ، فما للفروع منه يسوق
بحق أن يخلق الخلق
واللثم الذى يعق يعوق^(١)
فاق فضلا وخصه التوفيق

(١) يفيث ويعوق : اسما صنيين .

وإذا كانت القصيدة قد صبغت بألوان المحسنات البديعية ، حتى صارت أشبه
بجسم لا روح فيه ، فقد كانت سمة العصر يومئذ تقضى بالناية بهذه المحسنات ،
وتعمل على الاستكثار منها .

وإذا كان البيت الذي بقي من مدح ابن شيث لم يصور لنا سمة من سمات
المعظم ، فإن السخاوى مدحه بقصيدة ، سجل فيها موقفه في معركة دمياط ،
وما كان من أثره في النصر الذي ظفربه المسلمون على الفرج ، وفي هذه القصيدة
يقول :

سرى الملك المولى المعظم في الدجى	فأطلع نجم النصر بعد مغيبه
ورد على الإسلام بعد كآبة	سروراً ، وداوى الدين بعد شحوبه
تجلى بعيسى غمها ^(١) ، واعتدى بها	فريداً ، وأخفى نحرها من نسيبه

وهو شعر عليه سمة العلماء .

ومدحه ابن الساعاتى ، وخصص له قصائد طويلة ، لم يبق لنا من معظمها
سوى غزلها ، والبيت الذى تخلص فيه من الغزل إلى المدح ، فمن ذلك قصيدة
بدأها بقوله :

تبأ لما اختلق الواشى وما نقلا أما وعينيك ، لا قال الأنام : سلا

أما تخلصه من الغزل إلى المدح فذلك حيث يقول بعد غزل طويل :

ذم النوى كل مخلوق ، ورب نوى	شكرت فيه جياذ الخيل والإبلا
أفق من البين أهدت لى مطالعه	وللسيرة بدر التمّ ، لا أفلا
وما الفهم سوى الملك المعظم جاد الأ	رض جمماً ، فعم السهل والجبلا

ومن قصيدة أخرى بدأها بقوله :

رأى وقفة البين خطباً عظيماً تذيب القلوب ، فتجرى دموعا

(١) أى انجلى غم دمياط بالملك المعظم عيسى .

ومضى مطيلاً في الغزل إطالة فاحشة ، بلغ فيه أربعة وثلاثين بيتاً ولم يبق
من مدحه سوى هذا البيت :

أباح المعظم مني حمى مصونا ، وقد كان عنه دفوعا
ومدحه بقصيدة جاء في أولها قوله يتغزل :

عاد مني الخيال طيف الخيال مرحبا مرحبا به من وصال
ولم يبق كذلك سوى بيت تخلصها ، وهو قوله :

لا أذم البين المشت وقد جادلنا بالمعظم الفضال
وبأخرى أطال في غزلها ، وبدأه بقوله :

نسب الصبا مثلي يصح ويسقم كلانا معنى بالقدود متم
وتخلص منه إلى المدح فقال :

فلا عائد إلا حنين وذكره ولا واصل إلا خيال مسلم
وجربت هذا الدهر ، حتى عرفته وما جاهل شيئاً كمن هو يعلم
وقتشت أحشاء الزمان وأهله فلا ماجد إلا المليك المعظم

ومما مدحه به قصائد أخرى ، بدأ إحداها بقوله :

أهدى الضنا تذكارها لياء ، شط مزارها

وتخلص إلى المدح بقوله :

يمطى الأمان من الجـ دوب الوبقات جوارها
وإذا يخاف المحل فاللـ ك المعظم جارها

وبدأ الثانية بقوله :

هيج بلبالي بأهل بابل ليل الخيال وصباح العاذل

ومضى إلى الدح متخلصا إليه بقوله :

وما رأيت كالوداع موقفا يبكي القميل لوعة بالقاتل
يعفو القوى للضعيف عنده ويبلغ الجدد فمال الهازل
يا سائلي ، لا خبت عنى سائلا عن ناصرى على الزمان الخاذل
نلت المنى أرقل فى ثوب الغنى بالملك المعظم بن العادل
وبغيرها كان مظهرها قوله :

سرت موهنا ، لا أبعد الله مسراها وزارت ، فأغنى وابل الزن مغناها

وبقى تخلصه فيها من الغزل إلى الدح إذ قال :

فيارد أنفاس الصبا ما ألذها وأطيبها ، لولا الغرام وأنداها
ويطول غيظ الكاشحين لمرها وقد جهلوا أنباءها ، وعرفناها
وليلة وصل ما ركضت مدامى بأولها ، حتى عثرت بأخرها
بمثنائها رسل الكرى تخبط الدجى فعادت بأشباح الهوى إذ بمثنائها
فقد هتفت تلك الهضاب من الحيا كأن ندى الملك المعظم يفساها

ولست أدرى السر فى إبقاء ابن الساعاتى على غزله دون مدحه . ولم يخص
ابن الساعاتى ذلك بالملك المعظم وحده بل سار كذلك فى القصائد التى مدح بها
بعض عظماء الرجال كصلاح الدين مثلا ، فمعظم قصائده فيه بقى غزلها ، ولم نعتز
على مدحها ، فهل ذلك من فعل الرواة ؟ على أن ذلك لا يمنعنا من التساؤل عن
السبب الذى دفع الرواة إلى بتر جزء من القصائد وتركه . والحق أنى لم أهتم إلى
تعليل صحيح لذلك الاتجاه .

ولم يبق لنا كاملا مما مدح به ابن الساعاتى الملك المعظم سوى قصيدة واحدة
بدأها بغزل يتحدث فيه عن ذكريات حب عزيزة عليه إذ قال :

سقيت حيا^(١) جفنى^(٢) بياضة الحمى وإن كان ماء ، أنت صيرته دما
ولم أبك يوما من صدودك حادثا ولكننى أبكى وصالا تقدما
ليالى دنو ما أرق حواشيا وعصر شباب ، ما ألد وأنما
أبت بمده الأيام إلا تلونا كمهدك ، واللذات إلا تلونا
ولولم أشم جفنى ما بت صاديا وهيات أن أروى ، ولولا اللى^(٣) لما
ومضى فى غزله المتسم بسمه من الحزن ، والذي يبدو فيه الأسف على
الماضى ، والتلمف عليه ، ولعل الجوى الذى أحاط به ، ودفعه إلى المدح كان
جوا يصبغ غزله بهذه الصبغة الآسفة ، ويشمرنا بهذا الجو الذى تنفس فيه بهذه
القصيدة قوله ممهدا السبيل إلى المدح :

ولما انبرى صرف الزمان بعسفه ولم يبد إلا نبوة وتجهما
ركبت له عزمى ، ولست يبالغ مدى الأمر إلا أن تجدد وتعزما
وآليت : لازارت جىادى وأيتنى فما كذبت ، إلا الملك المعظم
فهر جو^(٤) ينبيء بضيق وقع فيه الشاعر ، حقيقة أو متخيلا ، مضى يتلمس
من يتقبذه منه ، فالتجأ إلى الملك المعظم . وهو جوبير الألم ، إذ فارق الشاعر مصر
قريح العين ، مستهام القلب ، دائم الحنين إليها ، وذلك حيث يقول :

سمى بددا^(٥) ، ما غادر النيل من صدى^(٦) وأنسى ركابى قاسيون^(٧) القطم^(٨)

(١) الحيا : المطر .

(٢) أى لما كنت صاديا . واللى : سمرة فى النفة .

(٣) بددا : مفرقا ، يريد أنه مفرق الجسم والقلب بين مصر ودمشق .

(٤) يريد أنه لم يقادر النيل لأنه عطش فى مصر .

(٥) قاسيون : جبل دمشق . أى أن قاسيون لم ينسه جبل القطم .

على هرمي مصر السلام من امرىء إذا ذكر الأوطان حن وسلما
وما فارقها العين إلا قريحة ولا القلب إلا مستهما متيما
فهو إذا في جو ذكريات تنثال على خاطره ، فلا غربة كان غزله مليئا بهذه
الذكريات . ومضى بعدئذ يمدح المعظم عيسى بالكرم ، وعزة الجانب ، وعلو الهمة ،
ورجاجة الرأي ، وكرم النسب ، ومصوراً ذلك صوراً متنوعة ، إذ قال :

قصدت من الأملاك أغزهم ندى وأسمجهم كفا ، وأمنهم حمى
وأشرفهم نفسا ، ورأيا ، وهمة وأكرمهم عما وخلا ، إذا انتمى
وما كان جود الدهر طبعاً بمثله ولكنه من أوليه ^(١) تعلمنا
أخو السيف ، لولا بأسه قطر الندى ولولا القدى في كفه لتضرما
يندم ، إذا ما قيل : كالليث سطوة ويهجي ، إذا يدعى من الغيث أكرما
إذا جئت ^(٢) عيسى ابن السحابة والندى فقد جئت في الإعجاز عيسى ابن صريحا
فكم بت من فقر ، وكم بث من غنى وأنشر من ميت ، وأبرأ من عمى
فتى أفصحت عنه مخايل مجده ففي مهده طقلا بهن تكلمنا
يريك ربيما كل وقت جنابه وبأبي نداء أن يكون محرما

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن شجاعته ، بعد أن عقد الموازنة بينه وبين
عيسى ابن مريم كما رأينا ، وعما كان له من أثر في صيانة القدس وحفظها من
الفرج ، فقد ألقى عليه عبء حفظها عندما ذاع نبا رغبة الفرج في الاستيلاء
عليها ، والشاعر يمدحه بسداده في الدفاع عنها قائلا :

سلوا ألسن الأعلام عن فتكاته وقب المذاكي ، والوشيج الملقوما ^(٣)
حمى القدس من زرق الأعادي بسمرها فما تجرد الخطي ^(٤) إلا مُحطما

(١) أي أن الجود ليس طبعاً في الدهر ولكنه تعلم من أسلاف المدوح .

(٢) بت : قطع .

(٣) المذاكي القلب : الخيول العالية . والوشيج : شجر الرماح

(٤) الخطي : الرمح .

شكا أهلها داءى محول وخيفة
سقى ريتها ماء النجيع سيوفه^(١)
فلم يبق في ساحاتها غير مسلم
وما صانها دارا تحل ، وأختها
إذا سل بالبيض الحنادس أشرقت
يضىء بحياه ، وللكرض هبوة
وما خلق في الدن إلا كغيرها
وبعد حديث عن دمشق ودعاء لها ، وذكر فضل المعظم على أمنها وسلامتها ،
أخذ يحدثه عما يملأ صدره من آمال دفعته إلى القرب منه ، وشد الرحال إليه ، فقال :
به حسنت عندي النى ، وبقربه
سيملم من أسرى ، فأغرق آملا
إليك قطعنا البيد بالخليل شزبا^(٢)
فيا كم جزعنا^(٣) ، وادبا كان مترعا
فوالله ، ما ندرى أجننا فياقيا
نسوق إليك الحمد أبيض صاديا
وغيدا^(٤) ، أبت إلا نزاعا إلى العلى
أبى المجد أن ينفى سوى المجد منحة
إلى أن بلغنا سدة الملك ، كلما

فأجرى على أعطافها الماء والدما
ففى غيرها لا يستجير التيمما
ولولاه لم تبق القرىجة مسلما
ولكنه صان العظيم وزمزا^(٥)
وإن كر ثوب الصبح بالنقع أعتما
فتلقاه فيها سافرا مقلما
إذا لم يحطها ظاعنا ونحما
حدث زمانا ، كان قبل مذما
ندى غيره ما نال من سار مشما^(٦)
ضوامر قبا ، والطنى مخزما^(٧)
بجودك ، أو ثوبا من الأرض معلما
من القفر ، أو وشى الرياض النعما
يساق إليه الوفر ريات مفعما
وقد شفها حب المعالى وتما
فيسأل دينارا إليك ودرها
سألنا أمرا صلى عليك وسلمنا

(١) أى سقى الدم سيوفه حتى رويت .

(٢) أى أنه بصيافته للقدس كأنه صان البيت الحرام فى مكة .

(٣) أغرق : أتى العراق . وأشأم : أتى الشام .

(٤) شزب : جمع شازب وهو الضامر اليابس .

(٥) خزم البعير : جعل فى جانب منخره حلقة .

(٦) جزع كمنع : قطع . (٧) يريد بها قصائده .

ومما ورد إلينا من شعر مدح به العظيم عيسى قول ابن المسجف الشاعر ،
وقد قدم من الشرق ، فطلب منه بهاء الدين المشرف على دار الزكاة ، أن يؤدي
زكاة ما معه من التجارة — فكتب ابن المسجف إلى العظيم :

أيا ملكا ، أباد عداه قهراً وأخيا كل منقبة وفضل
ومن هو كالسيح اسماً وفعلاً ونصبا للحياة وجزم فعل
يكلفني البهاء زكاة مال حرام كله من غير حل
فجد بهبات مالكم ، فإني أجل زكاتكم عن مال مثلي

وقد خاطبه الشاعر بالاصطلاحات النحوية الحبيبة إليه .

وعن أكثروا في مدح العظيم وأجادوا ، ابن عنين الشاعر ، ونرى أن نفرد
فصلاً ، نذكر فيه الصلة بين العظيم وشاعره .

صلته بابن عنين

توثقت الصلة بين العظيم والشاعر ابن عنين ، حتى صار من أخص رجال
حاشيته ، كما سبق أن ذكرنا ، وقد مضى الشاعر يصوغ لأميره عقود المدح ،
وينظم فيه قلائد الثناء . ولعل من أوائل شعره فيه تلك القصيدة التي بدأها متشوقاً
إلى دمشق ، متخيلاً مما هدها ، وملاعب طفولته وشبابه فيها ، وربما يكون قد
أرسل بهذه القصيدة إلى العظيم عيسى قبل أن يدخل دمشق ، أرسلها إليه ، كما
أرسل قصيدة إلى العادل ، يستمطع فيها ، راجياً أن يعود إلى دمشق ، ويرجع
أنها من أول قصائده فيه هذا الحديث عن حنينه إلى دمشق قائلاً :

أشاقك من عليا دمشق قصورها وولدان روض النيرين^(١) وحورها

(١) النرب : قرية مشهورة بدمشق ... في وسط البساتين اتزه موضع رأته ...
وقد ذكرها ابن خلدان وسماها النيرين ... اه يا قوت .

ومندجس في ظل أحوى كأنه
منازل أنس ما أمحت، ولا انمحت^(١)
كأن عليها عبقرى مطارف
تزيد على الأيام نورا وبهجة
إذا الرمح صرت في رباها كريهة
خليلي إن البين أفنى مدامعى
لقد أنسيت نفسى المسرات بعدكم

ثياب عروس فاح منها عيبرها
بحر الفوادى، والسوارى سطورها
من الوشى يسديها الحيا، وينيرها
وتذوى الليالى، وهى غصن حيرها
حباها بطيب النشر فيها سرورها
فهل لكما من عبرة أستعيرها
فإن عاد عيذ الوصل عاد سرورها

وبعد حديث عن لوعته، يقول مشتاقاً إلى دمشق :

متى أنا في ركب يؤم بنا الحى
حروف بأفعال لمن نواصب
تظن ذرا لبنان، واللبل عاكف
فيفرح محزون، ويكبت حامد

خفاف ثقال بالأمانى ظهورها
إذا آتست خفضاً فرغ مسيرها
صديع صباح من سراها يجيرها
وتبرد أكباد ذكى سميرها

وقد أحسن انتقاله من هذا الغرض إلى مدح المعظم، إذ قال :

وقدمات الآمال عندي وإنما
ومضى الشاعر بمدح الملك مبرزاً صفتين، لعل ظروفه وأمله في أن يجد الأمن في
عهده دفنمه إلى أن يبرزها، وهما صفة عدالته وإنجاحه أمل من يرجو نعمته، فقال :

يلاقى بني الآمال طلقاً، فبشره
فما نعمة مشكورة لا ينهها
حلقت بما ضمت أباطج مكة
لقد فاز بالملك المعظم أمة

بما أملتته من نجاح بشيرها
وما سيرة محمود لا يسيرها
غداة منى، والبدن تدى نحوورها
إلى عدله المشهور ردت أمورها

(١) أمحت : عفت. وانمحت : ذهب أثره.

أما غير هاتين الصفتين من عزيمته وهيبته التي تتساقط الجوزاء إن بدا لها عابساً ،
ويخشع لها الهلال ، فلا يحسر أن ينمو حتى يصير بدرًا ، وكرمه الذي تمدح السحب
إذا قيس به ، فقد اشتط في تصويره ، وبالع حتى تعدى حدود العقول ، إذ يقول :

هـام تظل الشمس من عزماته عجبية ، تقع المذاكي ^(١) ستورها
هيب ؛ فلولاق الكواكب عابسا تساقطت الجوزا وخرت عبورها
ولو آنت من الأهلة غصبة نهاها سطاء أن تتم بطورها
تشرف أئدى السحب إن قال قائل لأدنى نوال منه : هذا نظيرها

ومما يلحظ أن الشاعر ترك لنفسه العنان في الحديث عن عواطفه نحو دمشق ،
وحبه لها ، وتخيله لمعالمها ، وحنينه إلى رؤيتها ، وكان ذلك أكثر من مدحه
للمعظم ، مما يرجح لدينا أن هذه القصيدة قد أنشئت لترقيق قلب المعظم عليه ،
واتخاذها وسيلة إلى قلب أبيه العادل ، عله يسمح له بالعودة إلى دمشق .

وفي مدحة أخرى بدأها بغزل ، مزجه بالحديث عن الحمر ووصف الرياض ،
وانتقل إلى مدح المعظم مدحا فيه قوة ، وينبئك عن شعور الشاعر بمظمة مددوحه ،
وأغلب الظن أن الشاعر أنشأ قصيدته في مقتربه يتقرب بها إليه ، ليكون شفيعة
لدى أبيه . والشاعر في هذه القصيدة يمجّد شجاعته ، ويصوره في ميدان القتال
مقدماً لا يهاب ، إذ يقول عنه :

الخائض الغمرات في رهج الوغى والحرب حاسرة ، بغير قناع
والقوم بين مردّع ^(٢) بدماؤه ومعدّ ^(٣) بدماؤه ^(٤) مفصاع ^(٥)

(١) المذاكي من الخيل : التي آتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

(٢) ردعه بالشيء : لطخته به .

(٣) عرد : هرب .

(٤) الذماء : بقية النفس .

(٥) انصاع : اقتتل راجعاً مسرعاً .

في موقف ضحك كبريه طعمه
 يطههم نهـد^(٢) ، كأن مروره
 أو لقوة شغواء^(٤) حقق طرفها
 ومهتد يسدو على صفحاته
 ومثقف إن رام مهجة فارس
 فكان محكمة السوابغ عنده
 بجنان مضاء العزائم رأيه
 وكأنما يختال في غمراتها
 ليث الشرى^(١٣) في متن^(١٥) أجدل^(١٤) كاسر

يسطو بصل في ثياب شجاع
 خلقت أنامله لحطم مثقف
 ولقل هندي ، وحفظ راع
 ملأت مساعيه الزمان ، فدهره
 يومان : يوم قرى ، ويوم قراع

- (١) الجمجاع : الوضع الضيق الحشن ومعركة الحرب .
 (٢) المطههم : الضخم ، والتهد : القوس الحسن الجليل الجسم اللقيم المشرف .
 (٣) تلاع : جمع تلة وهو ما ارتفع من الأرض .
 (٤) اللقوة الشغواء : العقاب الأثني .
 (٥) المرقبة : المكان العالي .
 (٦) الطلا : ولد الظلي ساعة يولد .
 (٧) القاع : أرض سهلة منبسطة قد انفرجت عنها الجبال والأكام .
 (٨) الموضوعنة : الدرع المتاربة النسيج .
 (٩) لكاع : ثيمة .
 (١٠) الفائل : الضعيف .
 (١١) الضمضاع : الرجل بلا رأى ولا حزم .
 (١٢) هكذا في الديوان ولعلها « الضحى » أو ما شابهها .
 (١٣) الشرى : طريق في سلمى كثيرة الأسد .
 (١٤) اللتن : الظهر . (١٥) الأجدل : الصقر .

ولما كان قد أنشأ هذه القصيدة في مغتربه تحدث فيها عن رغبته في العودة
والإلتئام بقربه ، فقال :

يا أيها الملك العظيم ، دعوة	من نازح قلق الحشا مرتاع
لا يأتلى لدوام ملكك داعياً	وإني ولانك في المحافل داعي
يهدي إليك من الثناء ملايساً	تضفوا ، وتصفوا من قذى الأطماع
فإني متى أنا بالسفار أضيع الأيا	م بين الشد والإيضاع
بيننا أصبح بالسلام محلة	حتى أمسى أهلها بوداع
قسماً بما بين الحطيم إلى الصفا	من طائف متنسك أو ساع
إني إلى تقبيل كفك شيق	شوقاً يضم على جوى أضلاعي

وهذه قصيدة أخرى أرسلها إليه ، يشكو الغربة ، ويشير فيه كامن الشفقة ،
عساه يرجع إلى وطنه ، وكان أكثر ما مجده في المعظم شجاعته وبسالته ، ومهد
لهذا المدح بمقدمة ، كلها ثناء على الشجاعة والإقدام ، وجعل ذلك مفتتح قصيدته
مكان الغزل الذي يبدأ به الشعراء قصائدكم ولم ينس أن يمدح والده العادل ، وفي
هذه القصيدة يقول :

صليل المواضي واهتز ألقنا السمر	بغيرهما لا يجتنى ثمر الفصر
وصبر الفتى في المأزق الضنك فادح	ولكنه أهدي طريق إلى الفخر
وتحت ظلام النقع تشرق أوجه الـ	ثنا وجمع المجد في فرقة الوفر
وما استعبد الأحرار كالمقويان جني	جهول ، وفضل الصدر في سعة الصدر
ومن لم تنوه باسمه الحرب لم يزل	وإن كرم آباؤه خامل الذكر
إذا غشى الحرب العوان تخضعت	وقد اقتحت عن فتكة في العدا بكر
خلال علا ، لولا المعظم أعجزت	طرائقها الأملاك بمعد أبي بكر
هلال وبدر أشرقا ، قايها لنا	إلى الله إبقاء الهلال مع البدر

ملك إذا ما جال في متن ضام
عليه بتصرف القنا ، فرماحه
ومامشيل^(١) من أسد خفان^(٢) بأسل
هزبر إذا اجتاز الأسود بغيلة
بواد تحاماه الأسود مهابة
بأعظم منه في القلوب مهابة
فلا وزر من بأسه لعداته

ولو وقلت^(٣) كالصم^(٤) في شامخ وعمر

ثم يحن ابن عنين إلى المبالغة ، ولعلها كانت مما يحبه الممدوحون يومئذ ،
وذلك حين يقول :

ولو حاول الريح في الأفق منمها تخيم ما بين النعائم والفقر^(٥)

وبعدئذ مضى إلى هدفه من الاستعطاف ، وتصوير نفسه غريباً شريداً ، وقد

أجاد في هذا التصوير ، إذ قال :

فيأبها الملك المعظم ، دعوة
غريب إذا ما حل مصرا أبي له
له غنية عن غيركم من قناعة
فختام لا أنفك في ظهر سبب^(٦)
إليك لطوى الضلوع على حجر
وشيك النوى إلا ارتحالا إلى مصر
وأما إلى معروفكم فأخو فقر
أهجر^(٧) ، أو في بطن دوية^(٨) فقر

(١) الشبل : الأسد معه أشباله .

(٢) خفان : مأسدة قرب الكوفة .

(٣) وقل في الجبل : صعد .

(٤) الأعصم من الأطباء : ماني ذراعيه أو في أحدهما يابس وسائره أسود أو أحمر .

(٥) النعائم والفقر : من منازل القمر .

(٦) السبب : المفازة .

(٧) هجر : سار في الهاجرة وهي نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر .

(٨) الدوية : القلاة .

أشقق قلب الشرق ، حتى كأنني أقش في سودائه عن سينا الفجر
ويصبح بي أن أرتجى من سواكم نوالا ، وأن يعزى إلي غيركم شكرى
ولما عاد إلى دمشق مضى على منهجه يدح المعظم ، ويصوغ في الثناء عليه
قريضه . وكان بلاؤه في معركة دمياط مشاراً لشاعرية ابن عنين ، فضى يصف
المعركة ، مزهوا بالنصر فيها ، مثنياً على أحد أبطالها ، وافتتحها بالفرض ، غير مقلبت
عند غزل أو غيره ، مقتخراً قائلاً :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آباؤنا ، والقنا اللدنا
ثم يصف الجيش والمركة ، ويقول :

غداة لقينا دون دمياط جحفاً من الروم ، لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد انفقوا رأيا ، وعزما ، وهمة ودينا ، وإن كانوا قد اختلفوا لينا
تداعوا بأنصار الصليب ، فأقبلت جموع كُن الوج كان لهم سفنا
عليهم من الماذى ^(١) كل مفاضة ^(٢)

دلاص ^(٣) ، كقرن الشمس قد أحكمت وضنا ^(٤)
وأطعمهم فينا غرور ، فأرقلوا ^(٥)
فما برحت سمر الرياح تنوشهم ^(٦)
سقيناهم كأساً نفت عنهم الكرى
لقد صبروا صبرا جميلا ، ودافعوا
طويلا ، فما أجدى دفاع ، ولا أغنى

(١) الماذى : الدرع اللينة السهلة .

(٢) المفاضة : الدرع الواسعة .

(٣) درع دلاص : ملساء لينة .

(٤) وض الشيء : ثنى بعضه على بعض ، ونضده .

(٥) أرقل : أسرع .

(٦) التنأوش : التناول .

ويسجل الشاعر المعاملة الحسنة التي عومل بها الصليبيون ، ويوازن بين هذه المعاملة ، وبين ما كان ينتظر أن يعاملنا به الصليبيون ، لو أنهم كانوا هم المنتصرين ، ويقول :

ألقوا الموت من زرق الأسنة أحمرأ	فألقوا بأيديهم إلينا ، فأحسننا
وما برح الإحسان منا سجية	توارثها عن صيد ^(١) آبائنا الأبناء
منحنا ببقاياهم حياة جديدة	فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتوا ^(٢) في دماننا	ولو غاء، ولكننا ملكنا، فأسججنا ^(٣)
وقد جربونا قبلها في وقائع	تعلم غمر ^(٤) القوم منهاها الطمنا
فكم من ملك قد شددنا إساره	وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
أسود وغى ، لولا قراع سيوفنا	لما ركبوا قيذا ، ولا سكنوا سجننا
وكم يوم حر ما لقينا هجيره	بستر ، وقر ما طلبنا له كفا
فإن نعيم الملك في شظف الشقا	ينال ، وخالو العزم من مره يجنى

والشاعر كما ترى مزهوا بالنصر ، نفور به ، وإذا كان قد أشاد بما أبداه العدو من ضروب الصبر ، وحسن الدفاع ، وما في هذا الجيش من ملوك ، فإن في ذلك مجال فخر لجيش المسلمين ، إذ ينتصر على مثل هذا الجيش المرموم ، المحصن بالدروع . وانتقل بعدئذ إلى مدح المعظم عيسى ، فقال :

يسير بنا من آل أيوب ماجد	أبى عزمه أن يستقر به معنى
كريم الثنا ، عار من العار ، باسل	جميل الحيا ، كامل الحسن والحسنى

(١) الصيد : جمع أصيد، وهو المائل العنق . كناية عن الكبر والأنفة .

(٢) لم يأتوا : لم يقصروا

(٣) الإسجج : حسن العفو .

(٤) الغمر من لم يجرب الأمور .

لعمرك ، ما آيات عيسى خفية
سرى نحو دمياط بكل مميذع
فأجلى علوج الروم عنها ، وأفرحت
وطهرها من رجسهم بحسامه
مآثر مجد ، خلدتها سيوفه
هي الشمس للأقصى : سناء ، وللأدنى
نجيب ، يرى ورد الوغي المورد الأهنا
قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا
هام يرى كسب الثنا للغم الأسنى
مواقفها فيها ، فإن عاودوا عدنا
وهكذا ختم القصيدة مهجداً متوعداً ، كما بدأها مفتخراً مزهواً .

وسجل في قصيدة أخرى بلاءه في معركة دمياط ، وما قام به من جهاد
الفرنج عند القيمون ، حيث أرسله أبوه العادل ، كي يشغل الفرنج عن دمياط ،
وهناك ظفر بهم المعظم وهزمهم ، وأشاد بعدة لقاءات للمعظم نال فيها من الفرنج
وانتصر عليهم ، وابن عنين يسجل تلك المآثر في هذه القصيدة التي يقول فيها :
ومستخبر عنا ، وما من جهالة
وأذكركه أيام دمياط بيننا
وجيشاً خلطناه ، رحاب صدوره
وقد شرقت زرق الأسنة بالدها
وعمر دلاً كل دمر^(٢) مقامس^(٣)
ركناهم في البر والبحر لحمة
ويومأ على القيمون^(٤) ماجت متونه
نثرنا على الوادي رهوساً أعزة
ورضنا ملوك الأرض بالبيض والقنا

كشفت الغطاء عنه ، فزال ارتياحه
وبين العدا ، والوت تهوى عقابه
بجيش من الأعداء غلب^(١) رقا به
وأنكر حد الشرقي قرا به
ونكب إلا كل زاك نصابه
تقاسمهم حيتانه وذنا به
بزرق أعاديه ، وغصت شعابه
لكل أخى بأس متنع جنابه
فذل لنا من كل قطر صما به

(١) غلب كفرج : غلظ عتقه .

(٢) الذمر : الشجاع .

(٣) المقامس : المقامر .

(٤) القيمون : حصن قرب الرملة .

فكم أمرد خطاً الحسام عذاره وكم أشيب كان النجيع خضابه
وكم قد نزلنا ثمر قوم أعزة فلم نزل حتى تداعى خرابه
وكم يوم هول ضاق فيه مجالنا صبرنا له ، والموت يحرق نابه
يسير بنا تحت اللواء مدح كريم السجايا طاهرات ثيابه
ففرج ضيق الكفر عنا طعمانه وشتت شمل الكفر عنا ضرابه
وأصبح وجه الدين بعد عبوسه طليقاً ، ولولاه لطال اكتسابه
جهاد لوجه الله في نصر دينه وفي طاعة الله العزيز احتسابه
حميت حمى الإسلام فالدين آمن تذاذ أقاصيه ، ويخشى جنباه
وما بغيتي إلا بقاؤك سالماً لذا الدين ، لا مال جزيل أتاه

ومما عرضناه يتبين أن ابن عنين أجاد في أكثر ما مدح به الملك العظيم ،
ويظهر أن أكثر ما استرعى نظره من بين صفات العظيم هو شجاعته في ميدان
القتال ، فأخذ حيناً يصور هذه الشجاعة ، ويضرب بمض المثل التي تبرزها أمام
أعيننا واضحة مجسمة ، وحيناً يشيد بالمعارك التي بدت فيها هذه الشجاعة ،
وأبليت خير بلاء ، عاد على الإسلام باليمن والبركات .

وأشاد ابن عنين ببعض صفات العظيم الأخرى ، كالجود ، ونضج الرأي ،
وإن كان ذلك قليلاً .

وكان العظيم يثق في شاعرية ابن عنين ، ويراها جديراً أن يوفى الموضوع الذي
يتكلم فيه حقه ، فكان يكل إليه أحياناً أن يصور منظراً ملك عليه نفسه ،
وكأنما يريد تسجيل هذا المنظر حتى لا تضيع عليه ذكره .

حضر مرة مجلس الملك العظيم بدمشق ، ومملوك خاص قائم يظلمه من الشمس ،

فقال لابن عنين : قل في هذا شيئاً ، فقال :

وغصني بأن قلوب الناس قاطبة منه على خطر ، إن ماس أو خطرا

بدا ، وأبدى برؤياه لنا قرا
فيه من الحسن ما للعقل قد قرا^(١)
هو الغزال ولكنني عجبت له
من الغزاة إن زارته ، أن نفرا
وظل مستترا منها ومعتجبا
عنها ، ونورها في الناس قد ظهرا
فقلت : حسبك ، لا تخش اجتماعكما
فالشمس لا ينبغي أن تدرك القمر

كما كان ولده الناصر داود يثق في هذه الشاعرية ، ورأى فيها خير ما يستطيع
أن يعبر عن آلامه يوم توفي له أخ صغير ، ولعل الحزن ألجمه كما ألجم أباه المعظم ،
فلم يستطيعا رثاء هذا الصغير ، فمبر عن وجدها ابن عنين ، عندما قال على لسان
الناصر داود ، معبأ عن عجزه إزاء أحداث الدهر التي لا يستطيع دفعها
بقوته وأسرته .

قد كنت أرجو أن تكون مقاسمي
وأراك في يومٍ وغيٍّ ومسرة
نجري القضاء بضدٍّ ما أملت
خاتني الأيام فيك فقربت
ورمتني الأقدار منك بلوعة
لهق عليك لو أن هفأ نافع
قد أسعدتني بعد فقدك أدمع
وعدمت بعدك لذة الدنيا ، فقد
أبقيت في كبدي عليك حزا
فسق ضريحك كل دان مسبل
حتى ترى عرصات قبرك روضة
في خفض عيش ، أو لقاء أعادي
قلب الخسيس ، وصدر أهل النادی
فيه ، وأرهف حده لقنادی
يوم الردي من ليلة الميلاد
باتت تؤجج في صميم فؤادی
أو نافع حر الفؤاد الصادی
ذرف ، وخام^(٢) الصبر عن إسعادی
أنسيها ، حتى نسيت رقادی
تبدو لأهل الخسر يوم معادی
متواصل الإراق والإرعاد
موشية كوشائع الأبراد

(١) قره : غلبه .

(٢) خام عنه : نكس وجبن . وأسعده : أعانه .

فلقد مضيت ، وما كسبت خطيئة وتركت دار بلية وفساد
وسكنت دارا ملكها لك خالد وتركت دارا ملكها لنفاد
وقد أجاد ابن عنين في التعبير عن شعور الأخ الواحد عند فقدان أخ كان
يؤمل أن يشد به عضده .

اشتدت الصلة بين ابن عنين ومليكه المعظم ، وحفظ لنا شعره حينئذ إلى
الملك المعظم ، عند ما زار مصر ، وكان شاعره في دمشق ، فكتب إليه الشاعر :
تحية مشتاق بعيد مزاره أبي شوقه أن يستقر قراره
إذا نفحة حمرت به قاهرية ذكت في الحشا بين الجوانح ناره
وما شام من أعلى المقطم جفنه سنا بارق إلا توالى قطاره (١)
أحن إلى مصر ، وبليت أن لي إذا ذكرت مصر جناحا أعاره
فأوى إلى ظل ظليل ، ونائل جزيل ، وملك حالف المزجاره
وحفظ لنا شعره كثيراً من المداعبات التي كانت تجري بينهما : كتب إليه
مرة ، ولعله قد ساءه أن يتقدم عليه غيره عند الملك المعظم ، استخدم
اصطلاحات النحو ، وكان المعظم من رجاله المحبين لدراسته :

كأني من أخبار إن ، ولم يحز له أحد في النحو أن يتقدما
عسى حرف جر من نذاك يجرثني إليك ، فأضحى من زمانى مسلما
كما استخدم هذه الاصطلاحات في الرسالة التي كتبها إلى المعظم ، عند ما مرض
الشاعر ، وقد أدرك مفراها ، وسبق أن أوردنا هذه الرسالة .

وكتب إليه مرة وقد كثرت عليه الضيوف :

تبارك الله ، أعطى الناس ما سألوا صفواً ، وكال لهم بالزائد الوافي
فالحمد لله شكراً ، إني رجل ما يارك الله لي في غير أضيافي

(١) قطار : جمع قطرة .

وأنشده الملك المعظم هذا البيت لفرأى في الإسلام :

أى شيء تراه حقاً يقيناً طالما اعوج في الزمان استقاما
فأجابه بديها ، وصرح بالجواب :

أيها السيد الذى جعل الشر لك خطاما ، وشيد الإسلاما
قد أتاك الجواب ، لاشك فيه فانتخذنى المشكلات إماما

وحضر الشعراء عند الملك المعظم ، وفيهم ابن عنين ، فقال لهم : لا بد أن
تهجونى فى وجهى ، فقبلوا الأرض ، واستغفروا من ذلك ، فقال : لا بد من ذلك .
وألح عليهم ، فتقدم ابن عنين وقال :

نحن قوم ما ذكرنا لأمرىء قط إلا واشتهى ألا يرانا
شعرنا مثل الخرا ، ذقت الخرا صفع الله به أسل لحانا

ولما مات المعظم بكاه ابن عنين أحمر بكاء ، ورثاه رثاء قويا كما سنرى فى
فصل قادم ، وشعر كأنه صار يتما فقد أباه . وقد عبر عن هذا الشعور عند ما سأله
رجل من أهل دمشق شفاعاة إلى الملك العزيز عثمان ، بعد وفاة الملك المعظم أخيه ،
فكتب إليه :

عطفاً علينا يا عزيز ، فإننا بعد المعظم عندكم أيتام
ولأنت خير الكافلين ، فلا تدع أيتامكم يا بن الكرام تضام

ولم يرق ابن عنين ما آل إليه أمر دمشق بعد وفاة الملك المعظم ، فقد فتحها
الكامل محمد ، وأعطاه أخاه الأشرف موسى ، فقال ابن عنين :

وكنا نرجى بعد عيسى محمداً لينقذنا من لاعج الضر والبلى
فأوقعنا فى تيه موسى ، فكنا حيارى ، ولا من لدينا ولا سلوى

ولما بلغ الأشرف ما قال فيه ابن عنين ، قال : إذا لم يكن عندي من ولاسلوى
فعمد من ؟ وأمر بقطع لسانه ، خلف ابن عنين أنه ما قال هذا ، فقال الأشرف :
ما أفلت من لسانه أحد ، ولا بد من قطعه . فهرب ابن عنين ، وسكت
الأشرف عنه .

وهكذا لم يستفد ابن عنين بالإقامة في دمشق ، بعد موت مليكه العظيم .

وفاته

كان العظيم قد جهز الجند إلى نابلس ، ليكون بالمرصاد للإمبراطور الصليبي
فرديريك الثاني ، الذي كان يعمل على عقد معاهدة مع الملك الكامل يأخذ بمقتضاها
بيت المقدس ، ولم يكن العظيم راضياً عن مثل هذه المعاهدة ، وأعد الجند لإحباط
تنفيذ كل معاهدة من هذا القبيل ، ولكن المرض ألم به ، واشتدت عليه
(الدوسنطاريا) ، وأضعفته عن النهوض ، وبدأ الموت يطل من عينيه ، قالوا :
ولم يترك العظيم صلاة إلا أداها ، حتى لقد كان يقيم لكل صلاة قبل وفاته ، فلما
لم يستطع النهوض للصلاة صلى بالإيماء . وكان شديد الثقة في أنه سيلقى عند الله
خير المثوبة ، على ما قدم من جهاد في سبيله ، فكان يقول : « صرح عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال : لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخرى عبد
أبدا ، وكف في منخرى من تراب في سبيل الله » .

وفي يوم الجمعة أول يوم من ذى الحجة سنة ٦٢٤هـ (١٢ نوفمبر سنة ١٢٢٧م)
توفي العظيم عيسى في دمشق . وأقيم له العزاء ثلاثة أيام فيها ، واستقبلت رعيته
نبأ وفاته بألم بالغ ، واشترك في الحزن عليه الرجال والنساء ، كما سبق
أن ذكرنا .

ورثاء الشعراء ، فكان من ذلك ما قاله فيه بعض أصحابه ، وهو محب الدين البغدادي :

لئن غودرت تلك المحاسن في الثرى بوال ، فما وجدى عليك ببال
ومذ غبت عني ما ظفرت بصاحب أخى ثقة إلا خطرت ببالي
وقول بعضهم :

عيسى كعيسى كان إذ شاهدته يحى نداء ميت فقر مدقع
دفنوه في الأرض التي شرفت به فعجبت كيف إلى السما لم يرفع

ورثاء شاعره ابن عنين بقصيدة باكية ، مزج فيها آلامه الشخصية ، بآلام شعبه ، وآلام الأمة الإسلامية التي كانت ترى فيه بطلا من أبطال الإسلام المدافعين عنه ، والذين كانوا شجى في صدر الصليبيين ، وسجل فيها ما كان معجبا به من صفات المعظم وسجاياه ، وها هو ذا يبدأ قصيدته بدءا فيه ألم وحيرة ، إذ يقول :

يادهر ، ويحك ! ما عدا مما بدا ؟ أرسلت سهم الحادثات ، فأقصدا^(١)
أعمدت سيفاً مرهفاً شفراته قد كان في ذات الإله مجردا
فافل يجهدك ما تشاء ، فإنني بعد المعظم لا أبالي بالردى
ما خلته يقنى ، وأبقى بعده يا بؤس عيشى ، ما أمر. وأنكدا
لهفى على بدر تغيب في ثرى رمس ، وبحر في ضريح أحدا
أبقيت لى يادهر بعد فراقه كبدا مقرحة ، وجفنا أرمدنا
وجوى يؤجج بين أنشاء الحشا نارا ترايد بالدموع توقدا
لو كان خلق بالكارم والحق ببق لكان مدى الزمان مخلدا

(١) أقصد السهم : أصاب ، فقتل مكانه .

أو كان شق الجيب ينقذ من ردى
أو كان يغني عنك دفع بالقنا الخ
ولقد تمنيت أن تكون فوارس
أبكيت حتى نثرة (٣) وطمرة (٤)
كم ليلة قد بت فيها لا ترى
تحمي حمى الإسلام منتصراً له
ولرب ملهوف دعاء لحادث
ولطالما شبعت بوارق كفه
ماضل غمر عن محبة قصده
يامالكا من بعد فقدى وجهه
أعزى على بأن يزورك راثيا
كم مورد ضحك وردت ، وطعمه
وعزير قوم مترف سربلته
أركبته حلقات أدم (٨) ، قصرت
لولا دفاعك بالصوارم والقفنا
وديار مصر لو ونت عزماته

شقت عليك بنو أيبك الأكبدا
على غادرت الوشيح (١) مقصدا (٢)
من آل أيوب الكرام لك القدا
وحزنت حتى ذابلا (٥) ومهندا (٦)
إلا ظهور الأعوجية (٧) مرقدنا
بعزائم تستقرب المستبعدا
جلل فكان جوابه قبل الصدى
فهمت سحائبها علينا عسجدا
إلا وكان له إليها مرشدا
جار الزمان على بمدك واعتدى
من كان زارك بالمدايح منشدا
مر ، وقد عاف السكة الموردا
ذلا ، وكان الطاغى التمردا
منه الخطا من بعد أشقر أجردا (٩)
عن حوزة الإسلام عاد كما بدا
عن نصرها لتمكنت فيها العدا

-
- (١) الوشيح : شجر الرماح .
(٢) مقصدا : مكسراً .
(٣) النثرة : الدرع السلسلة اللبس .
(٤) طمرة : فرس .
(٥) الذابل : القنا الرقيق .
(٦) المهند : السيف .
(٧) الأعوجية : الخيل .
(٨) يريد بالأدم القيد .
(٩) الأشقر الأجرد : الجواد .

ولأمت البيض الحرائر أسهما
ولأصبحت خيل الفرنج مفيرة
وبشعر دمياط ، فكم من بيعة
أنقذتها من خطه الخسف التي
أجليت ليل الكفر عنها ، فانطوى
ولقد شهدتك يوم قيسارية
والكفر معتصم بسور مشرف الأ
فجملت عاليها مكان أساسها
ثم اتجه إلى ولده الملك الناصر داود يشد من أزره ، ويجد فيه العوض من
أبيه ، فيقول :

قل للأعادي : إن فقدنا سيديا
الناصر الملك الذي أضحى برو
أعلى الملوك محلة ، وأسدهم
ماضى العزيمة ، لا يرى في رأيه
يقط يكاد يريه ثاقب فكره
والحق أن قصيدة ابن عنين التي رثى بها المظم ، قوية بحكمة النسيج ، لا يكاد
النقد يجد فيها مأخذاً ينفذ به إليها ، وذلك إن دل فإنما يدل على صدق في إحساس
الشاعر ، وعاطفة قوية ملكت قلبه ، وتقدير لهذا المليك الذي يرثيه ، وقد صور
عواطفه إزاء فقدته تصويراً يشعرنا بما أحس به الشاعر من ألم ولوعة لفقد مليكه .

(١) البقيع : مقبرة ، وكدى : موضع بأسفل مكة .

(٢) الصفيح : حجارة عراض رقاق .

(٣) الجلمد : الصخر .

وكانت الصفة البارزة التي استولت على نفس الشاعر ، فبذل كل جهده في تصويرها ، هي بطولته في الدفاع عن الإسلام دفاعاً مجيداً ، فتخييل البطل سيفاً مرهف الشفرات يجرّد في ذات الله ، وتصوّر وسائل الجهاد من جواد قوى كان يحيط به ، ودرع كان يلبسه ، وقناة كان يضرب بها ، وسيف كان يحارب به — حزيناً على فراقه ، باكية على فقده .

وسجل ما سجله له مؤرخوه ؛ من أنه وهو في ميدان القتال ما كان يبيت إلا متأهباً للحرب ، « وزرديته مخدته » .

وأشاد ابن عنين بما بذله المعظم من جهد في المارك التي التقى فيها بالفرنج ، غنى دمياط كان له أثر حميد في إنقاذها من خطة الخسف التي تردت فيها عندما تملكها الفرنج ، وفي قيسارية حطم المعظم بنيانها ، وجعل عاليه أساقفه ، وصور الشاعر عودة الإسلام إلى دمياط بالنور يعود إلى رحابها ، بعد أن طوى ليل الكفر منجأياً عنها .

ولم ينس ابن عنين أن يسجل تقواه وكرمه ومروءته في إجابة المضطر الملهوف . ويبدو من القصيدة أن الشاعر كان يغمس حيناً في عواطفه الشخصية ، فيكي المعظم من ناحية الخسارة التي منى بها بفقده ، ثم يتجه مصوراً ما أصيب به المسلمون من خسارة ، ثم لا يلبث أن تطفئ عليه مرة أخرى عواطفه الشخصية ، فعواطفه الجماعية ، وهكذا كان يتنقل بين هاتين الماطفتين .

ورثي المعظم كذلك على رءوس الأقطاب ، في جامع دمشق المورخ الواعظ سبط ابن الجوزي ، وقد غلبه البكاء والتأثر عندما أخذ يرثيه ، ولم يرد إلينا شيء من هذا الرثاء .

وبعد ، فقد غلبت صفة الشجاعة فيه ما عداها من الصفات ، فكانت حياطته للمدين ، وجهاده للفرنج أظهر ما مدح به ، وما سجل فيه من رثاء ، أما غيرها من

الصفات الأخرى ، كديمقراطيته ، وعلمه ، وحسن صحبته ، فما لم يسجله الشعراء ، وإن لمحوأ إليه أحياناً ، ومما رأوه ثانوياً في عصر كان الأمل الأول فيه المسلمين أن يجدوا في ملوكهم أبطالا يذودون عن حكام ، ويردون الصليبيين ، ويحفظونهم بالأمن في أوطانهم ، ولعل هذا هو السبب الذي لم يشد فيه الشعراء بياق صفاته اللامعة ، وربما أشاد بعض الشعراء بها ، ولكن لم يصل إلينا شعره ، لأنه لم يرد إلينا جميع ما قاله الشعراء في المعظم .

وإذا كان الشعر لم يصل إلينا ، فإن المؤرخين قد أعجبوا به ، وسجلوا هذا الإعجاب في كتبهم ، وسوف نعرض هنا بعض ما كتبوه .

من أقوال مؤرخيه

قال عنه سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان (٨ : ٢٢٥) : « العالم ، الفقيه ، الفاضل ، المجاهد في سبيل الله ، الغازي ، النحوي ، اللغوي ... وما كان يقيم وزن الشعر في بعض الأوقات ، فكنت أقول له : فيك ضرب من النبوة : وما علمناه الشعر . وكان شجاعاً مقداماً ، كثير الحياء ، متواضعاً ، مليح الصورة ، ضحوكاً ، غيوراً ، جواداً ، حسن العشرة ، محافظاً على الصحبة والودة .. محسناً إلى الرعية ، ذاباً عن حريمهم ، رفيقاً بهم ، يعرف صغيرهم وكبيرهم » .

ونقل في كتابه عن الملك الظاهر صاحب حلب أنه قال له : والله هو واسطة المقد ، وعين القلادة . وعن الملك الكامل صاحب مصر أنه قال له أيضاً : ومن حفظ على البلاد وأحياني بعد الموت غيره ؟ يشير إلى حادثة ابن المشطوب . وقد شرحناها فيما مضى .

وقال محمد بن سالم بن واصل صاحب مفرج الكروب (٢ : ٢٤٦) : « كان ملكاً جليلاً شجاعاً ، شديد البأس ، مهمياً ، .. عالماً ، قاضياً ، متقناً في الفقه والنحو

وغير ذلك . . ولما وقف على تاريخ بغداد الذى صنفه الشيخ الحافظ أبو بكر أحمد بن ثابت ، وفيه مطاعن على أبي حنيفة رواها الخطيب عن جماعة من المحدثين ، رد عليه الملك العظيم فى ذلك ، وصنف كتاباً سماه : السهم المصيب فى الرد على الخطيب . وأجاب العظيم فى هذا الكتاب عن كل مطن ذكره بأحسن جواب ، وذكر فيه مباحث جليلة دقيقة فى الفقه والنحو ، ووقفت على هذا الكتاب بالقدس الشريف وطالعه جميعه ، ووجدته فى غاية الحسن . ولما قدم الملك العظيم القدس سنة ٦٢٣ هـ جلس خارج الصخرة الشريفة ، واستدعى جماعة الفقهاء . . وباحثهم فى مسائل فقهية ونحوية .

وقال الذهبى فى تاريخ الإسلام (حوادث سنة ٦٢٤ ص ٨٢) : « ومرض الملك العظيم ، فتصدق وأخرج المسجونين ، وأعطى الأشراف ألف غرارة ، وتصدق على الفقهاء والصوفية وغيرهم ثمانين ألفاً وخمسمائة غرارة ، وحلف من بالحضرة لولده الناصر ، واشترى ابن رويدان حصاناً أصفر للعظيم بألف دينار مصرية ، وأحضرها ، فأمر بالتصدق بها بالمصلى ، فازدحم الخلق لذلك . . ثم مات . ورمى ابنه الكاوة والماليك ولطموا فى الأسواق ، وقرأ التجيب فى الغزاء : « يادود ، إنا جملناك خليفة فى الأرض » ؛ فضج الناس .

وقال التنويرى فى نهاية الأرب (٢٧ : ٣٠) : « كان شجاعاً ، مقداماً ، كثير الحياء ، متواضعاً ، حسن الصورة ، ضحوكاً ، غيوراً ، جواداً ، حسن العشرة ، محافظاً على الصحة والمودة ، ولا يقطع الاشتغال بالقرآن ، والجامع الكبير ، وسيبويه . وكان يركب فى كل يوم غالباً ، فإذا نزل مد السماط ، فإذا أكل الناس انتصب لقضاء الحوائج إلى الظهر » .

وقال أحمد بن محمد الفيوى فى كتابه نثر الجمان (٢ : ٤ ب) : كان فقيهاً ، عالماً ، فاضلاً ، جمع بين فضيلتى السيف والقلم ، ورياستى العلم والعلم ، وجاهد فى

سبيل الله تعالى . وكان قليل التكلف جداً في غالب الأوقات ، لا يركب بالسناجق السلطانية ، ويركب وعلى رأسه (كلوثة) سوداء ، بلا شاش ، ويخترق الأسواق من غير أن يطرق بين يديه ، كما جرت عادة الملوك ، ولما كثر هذا منه ، صار الإنسان إذا فعل أمراً لا يتكلف له ، يقال : قد فعله بالمعظمي .

وقال الصفيدي في كتابه الواق بالوفيات (ج ٥ القسم الثالث ص ١١٤) : « كان عديم الالتفات إلى ما يرغب فيه الملوك من الالتفات إلى الأبهة والمظمة » . وقال ابن خلكان في وفيات الأعيان (١ : ٣٩٦) : كان على الهمة ، حازماً ، شجاعاً ، مهيباً ، فاضلاً ، جامعاً شمل أرباب الفضائل ، محباً لهم ، . . . وكان المعظم يحب الأدب كثيراً ، ومدحه جماعة من الشعراء المجيدين فأحسنوا في مدحه ، وكانت له رغبة في فن الأدب . . . وقيل : إنه كان قد شرط لمن يحفظ الفصل للزخشرى مائة دينار وخلمة . . . ولم أسمع مثل هذه المنقبة لغيره .

وقال صاحب النجوم الزاهرة (٦ : ٢٦٨) : « أطلق أبو المظفر عنان القلم في ميدان محاسنه ، حتى إنه ساق ترجمته في عدة أوراق في مرآة الزمان . قلت : ويحق له ذلك ، فإن المعظم كان في غاية ما يكون من الكمال في عدة علوم وفنون ، وهو رجل بنى أيوب وطالبهم بلا مدافعة ، ومحاسنه أشهر من أن تذكر » .

وقال ابن الأثير في كامله (١٢ : ٢١٨) : « ونفق العلم في سوقه ، وقصده العلماء من الآفاق ، فأكرمهم ، وأجرى عليهم الجرايات الوافرة ، وقربهم ، وكان يحالسههم ، ويستفيد منهم ، ويفيدهم ، وكان يرجع إلى علم وصبر على سماع ما يكره ، لم يسمع أحد ممن يصحبه منه كلمة تسوؤه ، وكان حسن الاعتقاد » .

وقال أبو شامة المقدسي في ذيل الروضتين (ص ١٥٢) : « وبالجملة تفرد من بين الملوك بالجمع بين مواظبة الغزو ، والاشتغال بأنواع العلوم ، والحج إلى الحرمين

بنفسه ، وإعانة غيره عليه ، وكان عديم الالتفات إلى ما يرغب فيه الملوك : من الأبهة والتمظيم والمدح وغير ذلك » .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٣: ١٢١) : « كان يحب العلماء ويكرمهم ويجهد في متابعة الخير . . وأوصى عند وفاته ألا يكفن إلا في البياض ، وأن يلحد له ، ويدفن في الصحراء ، ولا يبني عليه ، وكان يقول : واقعة دمياط أودعها عند الله تعالى ، وأرجو أن يرحمني بها - يعني أنه أبلى بها بلاء حسنا - رحمه الله تعالى . وقد جمع بين الشجاعة ، والبراعة ، والعلم ، ومحبة أهله . وكان يحى في كل جمعة إلى تربة والده ، فيجلس قليلا ، ثم إذا ذكر المؤذنون ينطلق إلى تربة عمه صلاح الدين ، فيصلي فيها الجمعة ، وكان قليل التعاطف ، يركب في بعض الأحيان وحده ، ثم يلحقه بمض غلماناه » .

وقال ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٥ : ١١٥) : « برع في الفقه ، وكان عديم الالتفات إلى النواميس وأهبة الملك ، ويركب وحده مراراً ، ثم تتلاحق به مماليكه . . وكان من النجباء الأذكىاء . . ومرض ابن عنين ، فكتب إليه :

انظر إلى بعين مولى ، لم يزل يولى الندى ، وتلاف قبل تلافى
أنا كالندى : أحتاج ما محتاجه فاعنم ثوابي والثناء الواقى

فجاء إليه فعاده ، ومعه صرة فيها ثلاثمائة دينار ، وقال : هذه الصلة ، وأنا العائد . وهذه لو وقعت لأكابر النجاة لاستحسننت منه ، فكيف هذا الملك » .

ولكى يستوفى البحث العلمى ما يجب أن يلتزم فيه من صدق العرض ينبغى أن نشير إلى ما سجله بعض المؤرخين من أنه أخذ بنصيب من اللهو في شبابه ؛ وإلى ما ذكره صاحب شذرات الذهب من أن المعظم كان فيه خير وشر كثير ، من غير أن يفصل ألوان هذا الشر الكثير ، ولعل ابن العماد الحنبلي أخذ عليه ما لا يوافق

مذهبه من تشجيعه لدراسة الفلسفة ، وتمصبه لمذهب أبي حنيفة ، وما ساء ساكنى بيت المقدس عندما دفعته الضرورة إلى تخريبه ، ومن حبه للنبيذ ، ورغبته فى شربه ، وقد تحدثنا عن ذلك وبيننا وجه الرأى فيه ، فيما مضى . وقد يكون من ألوان هذا الشر استخدامه لابن عنين ، وماضيه فى الهجاء قد أخاف الناس منه ، وكون ضده رأيا عاما أحسن به الشاعر ، ودفعه إلى طلب الإقالة من الديوان .

ولسنا مع ذلك نرى المظلم من الهنات والمفوات ، ولكننا نراه برغم ما قد يكون فيه من ذلك مثالا رائعا للملك ديمقراطى عالم شجع العلماء ووقف نفسه على الدفاع عن الإسلام ، وحياطته فى عصر كان الأعداء يتربصون بالإسلام ربب المتنون .

ذريته

ترك الملك المظلم بعده من البنين أربعة ، ومن البنات تسعا ، وقيل إحدى عشرة . أما بنوه فقد مات أحدهم صغيراً بعده بقليل ، والباقيون هم الملك الناصر داود ، وهو أكبرهم ، ولد سنة ٦٠٣ هـ ، والملك المنيع عبد العزيز ، والملك القاهر عبد الملك . وكان قد مات له فى حياته طفل صغير ، هو الذى رثاه ابن عنين ، وقد سبق أن تحدثنا عن هذا الرثاء .

وقد قام الناصر مقام أبيه فى ملك دمشق بعد وفاته ، ويظهر أنه كان يريد أن يتابع سيرة أبيه ، ويجعل عهده امتدادا لهذا العهد الذى عاشه أبوه ، فكان حنفيا مثله ، عالما محبا للعلماء ، مشجعا على دراسة علوم الأوائل ، أدبيا كاتباً شاعراً ، يحب جهاد الفريج ، ويرغب فى لقاءهم ، كما كان أبوه من قبل .

ولكن لم يكد المظلم يموت ، حتى تحرك أخواه ، يريدان انتزاع دمشق من يدى ابنه الناصر ، انتهى رأى أنه لا قبل له بحرب عميه ، فسلم الكامل دمشق ، على أن يأخذ بدلها الشوبك والكرك ، ولكن أطاعه فى أن يعود يوماً إلى دمشق ،

وأن يؤسس ملكا كبيرا لم تفارقه طول عمره ، وإن كان الزمن لم يسمعه بتحقيقها ،
فإن المطلع على تاريخ الأسرة الأيوبية بعد وفاة عمه الملك الكامل يؤسف ما
استحكم من الخلاف العنيف الذى دار بين ولدى الكامل فى شدة وقسوة ، وما
شب من نزاع بين أبناء الأسرة الأيوبية ، فأخذ بعضهم يحبس بعضا ، ويقتل
أحدهم أبناء صاحبه ، وكان الناصر داود من بين هؤلاء الذين اشتركوا فى هذا
النزاع المحتدم بين أبناء هذه الأسرة ، غير أنه لم يكن من تدخله فى هذا النزاع
ثمرة ما ، بل لقد كان نصيبه بعد أن ساعد الصالح أيوب أن سير هذا إلى الشام
من استولى على جميع بلاد الناصر داود ، وخرب ضياع الكرك ، ثم نازلها أياما ،
وقل ما عند الناصر من المال والذخائر ، وقل ناصره ، فأنشأ قصيدة يعاتب فيها
السلطان ، فيما له عنده من اليد فى الدفاع عنه ومساعدته حتى ملك الديار المصرية ، وهى :

قل للذى قاسمته ملك اليد	ونهضت فيه نهضة المستأسد
عاصيت فيك ذوى الحجا من أسرتى	وأطعت فيك مكارمى وتوددى
يا قاطع الرحم التى صلتى بها	كتبت على الفلك الأثير بمسجد
عمى أبوك ، ووالدى عم به	يعاوى انتسابك كل ملك أصيد
صالا ، وجالا ، كالأسود ضواريا	فارتد تيار الفرات الزيد
دع سيف مقولى البليغ يذب عن	أعراضكم بقرنده التوقد
فهو الذى قد صاغ تاج فخاركم	بمفصل من لؤلؤ وزبرجد

ثم أخذ يصف نفسه وجوده ، ومحاسنه ، وسؤدده ، إلى أن قال :

يا محر جى بالقول ، والله الذى	خضعت لعزته جباه السجد
لولا مقال الهجر منك لما بدا	منى افتخار بالقريض النشد
إن كنت قلت خلاف ما هوشيمتى	فالخاكون بسمع ، وبمشهد
والله ، يا ابن العم لولا خيفتى	لرميت ثغرك بالعداء الرد

لكننى ممن يخاف حرامه ندما يجرعنى صمام الأسود
فأراك ربك بالهدى ما ترتجى لتراك تفعل كل فعل مرشد
لتعبد وجه الملك طلقاً ضاحكا وترد شمل البيت غير مبدد
كى لا ترى الأيام فينا فرصة للخارجين ، وضحة للحسد

وانتهى المطاف بفقد الناصر ملكه فى الكرك على يد ولديه : الملك الأجد
حسن ، والملك الظاهر شادى ، من غير أن يكون لأيهما رأى فى النزول عن
الكرك ، بل كان غائباً فى بغداد ، حين تنازل ابنه عنها ، ولعلهما كانا يريدان
أن يقيموا فى مصر ، ولكنهما نفيا منها ، وإليهما ينتهى ما عرفته من ذرية
المعظم عيسى .

ويحفظ التاريخ لأيهما الناصر داود معركة دارت بينه وبين الفرنج ،
سنة ٦٣٨ هـ ، وانتصر عليهم فيها ، وغنم منهم أشياء كثيرة .

ويذكر أنه مضى إلى القدس ، فاستماده من يد الفرنج ، وكان الكامل قد
سلمه إليهم ، وبذلك مدحه الشاعر ابن مطروح فقال :

المسجد الأقصى له عادة سارت ، فصارت مثلاً سائراً
إذا غدا للكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً
فناصر طهره أولاً وناصر طهره آخراً

وقد أرخ للناصر داود ابنه الملك الأجد فى كتاب بقى لنا إلى اليوم دعاه :
الفوائد الدرّية فى الفرائد الناصرية ، وقد قسم الأجد كتابه قسمين ،
وصدّره بمقدمة .

أما المقدمة فذكر فى فصل منها نسبه ، وقد أكد فى هذا النسب أنه ينحدر
من العرب من ناحية أبيه ، وإن كان فى أمهاته كرويات وتركيات .

وفي الفصل الثاني تحدث عن مآثره وكرم خلاله .

وأورد الأجد في القسم الأول شيئاً من نثر أبيه خطباً ورسائل . وفي القسم الثاني ما حفظه من شعره .

ومن أطرف ما روى من نثره : صفة مشروب ، يعالج به داء الذنوب . وهو : الله الشافي بلطفه . شراب مركب نافع ، لشاربه يوم الفزع الأكبر شافع : يؤخذ من مستحکم مرير الصبر ، وما احلولى من لذيد الذكر ، فيغربلان يغربال التفكير السهرى ، ويدافان^(١) بماء العين النظرى ، ثم يصفى المجموع بلباب العلم التجردى ، ثم يعجن بعسل المحبة الإلهية ، وسقوف النشوقات القدسية ، ويطيب بأفأويه المـزائم الصادقة ، وأبازير القرائح السابقة ، إلى أن يظهر في السنة المقول لهبه ، ويبقى في شهوة الجذ طلبه ، ويطنخ بعد ذلك بسكر الإخلاص والمصافاة ، وماء ورد الملازمة والموافاة ، طبخاً يظهر في الأحكام آثاره ، على لب تضرمت أنواره ، ويستعمل ممزوجاً بماء دموع جرت ، على ما أجمرت ، وفرطت ، على ما فرطت ، بعد الحماية التامة عن موارد الشبهات ، والتجنب عن دواعى الشبهات ، والتغذى مما لا يوجب التبعات ، إلى أن يظهر في قارورة القلب استنارة الاعتدال ، ويذهب عنها رسوب الجيرة والضلال ، لعله بعد الإرادة الإلهية بوجب الحياة الدائمة ، لمرضى نفوس بجلال ملكوته هائمة ، فيوصلها عين الوادى القدس سالمة ، لتبقى على متدفق نهره حائمة ، إذا شربت من كوثره صفت عيشتها ، ودام أنسها بدوحة بهجتها ، وغدت تغرد على غصون السعادة الأبدية ، بتفحات متسقة النسب إلى الدار الأحدية ، بما منجته من تعديد صفات جلاله ، وترجيح عجائب فعاله ، الدالة على كماله ، وهى مختالة في حلل الكرامة ، متوجة بتاج البقاء

(١) الدوف : الخلط .

في دار المقامة ، حيث الظل ظليل ، والنائل جزيل ، والملك الحق بكرامة وفيده
قائم وكفيل ، ورضاه لهم نعم الموثل والمقيل .

يا من هجرت له الأهلين والوطنا وصارمت مقلتي في حبه الوسنا
لأشكرن اجتهاداً ، كان آخره ما قلد الجيد من تلقائك المننا
فاسمح بقربك للنفس التي حكمت لها المطالب أن تحيي بك الزمنا
وهو أسلوب لا يختلف عن أسلوب عصره المنعم بالسجع .

أما الشعر الذي رواه له ولده فرتبه على عشرة أبواب : الأول في الإلهيات
والزهديات . والثاني في المديح ، وفيه الحماسة والفخر ، والثالث في عقاب الأشرار
والاستنصار عليهم بالله ، والرابع في المراثي ، والخامس في الشوق إلى الإخوان
والحنين إلى الأوطان ، والسادس في النسب ، والسابع في الغزل ، والثامن في
الغزليات ، والتاسع في الطرديات ، والعاشر في التلميز . وذلك يدل على سعة الميدان
الذي جرى فيه الناصر . وقد أوردنا بعض شعره ، ومما قاله :

قلبي وطرفك قاتل وشهيد ودي على خديك منه وشهود
يأيها الرشأ الذي لحظاته كم دوسن صوارم وأسود
ومن العجائب أن قلبك لم يلبس لي ، والحديد ألام داود
وتوفي الناصر في جمادى الأولى سنة ٦٥٦ هـ ، ودفن عند والده الملك العظيم .
والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

حلوان الحمامات في { ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٢ هـ .
١٤ مارس سنة ١٩٥٣ م .

مراجع البحث

أحمد أحمد بدوي :

١ — الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام (مطبعة نهضة مصر).

أحمد بن عبد الوهاب النويري ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ .

٢ — نهاية الأرب في فنون الأدب (مصور بدار الكتب ، رقم ٥٤٩ معارف عامة) .

أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ :

٣ — تاريخ بغداد . (مصر سنة ١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م) .

أحمد بن علي المقرئ ، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ :

٤ — كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة . (القاهرة سنة ١٩٣٩ م) .

أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة ، المتوفى سنة ٦٦٨ هـ .

٥ — عيون الأنباء في طبقات الأطباء . (المطبعة الوهبية سنة ١٨٨٢ م) .

أحمد بن محمد بن خلكان ، المتوفى سنة ٦٨١ هـ :

٦ — وفيات الأعيان . (المطبعة الميمنية سنة ١٣١٠ هـ) .

أحمد بن محمد بن علي الفيومي ، المتوفى سنة ٧٧٩ هـ :

٧ — نثر الجمان في تراجم الأعيان . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٧٤٦ تاريخ) .

إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر : الملك المؤيد ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ :

٨ — المختصر في أخبار البشر . (دار الطباعة بالآستانة سنة ١٢٨٦ هـ) .

جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوى ، المتوفى سنة ٧٤٨ هـ .

٩ — الطالع السعيد مجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصميد .
(المطبعة الجالية سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م) .

الأجد الحسن بن الناصر داود بن المعظم عيسى :

١٠ — الفوائد الدرية في الفرائد الناصرية . (مصور بدار الكتب ، رقم ٢٢٩٣ — أدب) .

خليل بن أبيك الصفدى ، المتوفى سنة ٧٦٤ هـ :

١١ — تذكرة الصفدى . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ٤٢٠ — أدب) .

١٢ — الوافى بالوفيات . (مصور بدار الكتب ، رقم ١٢١٩ — تاريخ) .
خير الدين الزركلى :

١٣ — الأعلام . (المطبعة العربية بمصر سنة ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٧ م)

عبدالحى بن أحمد بن محمد الهاد الحنبلى ، المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ :

١٤ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . (عنى بنشره حسام الدين المقدسى سنة ١٣٥٠ هـ) .

عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ، المتوفى سنة ٩١١ هـ :

١٥ — بغية الوعاة . (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ هـ) .

عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ :

١٦ — الروضتين فى أخبار الدولتين . (مصر سنة ١٢٨٧ هـ) .

١٧ — ذيل الروضتين . (المطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ م) .

عبد الرحيم بن على بن شيث ، المتوفى سنة ٦٢٥ هـ :

١٨ — معالم الكتابة ومغانم الإصابة . (طبع بيروت سنة ١٩١٣ م) .

محيى الدين عبدالقادر بن محمد التميمى ، المتوفى سنة ٩٢٧ هـ :

١٩ — تنبيه الطالب وإرشاد الدارس ، فيما بدمشق من الجوامع والمدارس .
(مخطوط بالمكتبة التيمورية ، رقم ١٤٩٨ تاريخ) .

عبدالقادر بن محمد القرشي التميمي المصري ، المتوفى سنة ٧٧٥ هـ :

٢٠ — الجواهر المضية في طبقات الحنفية . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٥٩ م تاريخ) .

علي بن رستم الخراساني : ابن الساعاتي ، المتوفى سنة ٦٠٤ هـ :

٢١ — ديوان ابن الساعاتي . (طبع بيروت سنة ١٩٣٩ م) .

علي بن محمد بن الأمير ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ :

٢٢ — الكامل في التاريخ . (الطبعة الأولى سنة ١٣٠١ هـ) .

عمر بن الوردي ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ :

٢٣ — تاريخ ابن الوردي . (المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٥ هـ) .

عيسى بن أبي بكر بن أيوب : الملك المعظم ، المتوفى سنة ٦٢٤ هـ :

٢٤ — السهم المصيب في كبد الخطيب . (مطبعة المصمادة سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م) .

الفتح بن علي البنداري :

٢٥ — الشاهنامة — نشرها الدكتور عبدالوهاب عزام . (مطبعة دار الكتب سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م) .

قاسم بن قطوبغا ، المتوفى سنة ٨٧٩ هـ :

٢٦ — تاج التراجم في طبقات الحنفية . (طبع ليبسك سنة ١٢٨٨ هـ — ١٨٦٢ م) .

محمد بن أحمد المعروف بابن إياس المصري ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ :

٢٧ — بدائع الزهور في وقائع الدهور . (طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ) .

محمد أمين بن حبيب ، من علماء القرن الثالث عشر :

- ٢٨ — طبقات الفقهاء والمباده والزهاد . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٦٦ تاريخ) .
شمس الدين محمد المعروف بالذهبي ، المتوفى سنة ٧٤٨ هـ :
- ٢٩ — تاريخ الإسلام . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٤٥٢ تاريخ) .
محمد بن سالم بن واصل ، المتوفى سنة ٦٩٧ هـ :
- ٣٠ — مفرج الكروب في دولة بني أيوب . (مصور بدار الكتب ، رقم ٥٣١٩ تاريخ) .
محمد بن شاكر بن أحمد السكتي ، المتوفى سنة ٧٦٤ هـ :
- ٣١ — فوات الوفيات . (مطبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ) .
محمد عبدالحى الكنوى الهندى
- ٣٢ — الفوائد البهية في تراجم الحنفية . (مطبعة السمادة ١٣٢٤ هـ) .
محمد بن عبدالرحمن الدمشقي :
- ٣٣ — ديوان الإسلام . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ٢٢٠٨ تاريخ) .
محمد الطيب بن عبدالله . (من علماء النصف الأول من القرن العاشر الهجرى) .
- ٣٤ — قلادة النحرفي وفيات أعيان الدهر . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ٤٤١٠ تاريخ) .
محمد فريد أبو حديد :
- ٣٥ — صلاح الدين الأيوبي وعصره (مطبعة دار الكتب سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م) .
محمد كرد على :
- ٣٦ — خطط الشام (طبع دمشق سنة ١٣٤٦ هـ) .
محمد بن نصر بن عنين ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ :
- ٣٧ — ديوان ابن عنين (مطبعة دمشق سنة ١٩٤٦ م) .

محمود بن سليمان الشهير بالكفوى الحنفى :

٣٨ — كتاب أعلام الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار .

(مخطوط بدار الكتب رقم ٨٤ م تاريخ) .

مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة ، المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ — ١٦٥٧ م .

٣٩ — كشف الظنون عن أسمى الكتب والفنون . (طبع الآستانة سنة ١٩٤١ م) .

ياقوت الرومى ، المتوفى سنة ٦٢٦ هـ :

٤٠ — معجم البلدان . (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ هـ) .

يوسف بن تفرى بردى الأتابكى :

٤١ — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . (مطبعة دار الكتب سنة

١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م) .

يوسف بن قزأوغلى : سبط ابن الجوزى ، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ :

٤٢ — مرآة الزمان . (مخطوط بدار الكتب ، رقم ٢١٨١ تاريخ) .

Encyclopédie de L'Islam.

Livraison 47. P. 663.

Paris 1913.

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة .	٤٧	أخلاقه .
٥	الأسرة الأيوبية .	٥١	أدبه
٧	مولده ونشأته .	٦٠	الشعر بمدحه .
١١	أساتذته وبطانته .	٦٨	صلته بابن عنين .
١٦	كتبه .	٨١	وفاته .
٢١	تشجيعه للعلم .	٨٦	من أقوال مؤرخيه .
٢٧	مدارسه .	٩٠	ذريته .
٣٠	حياته السياسية .	٩٥	مراجع البحث .
٣٧	علاقته بالفرج		

للمؤلف

(أ) تأليف :

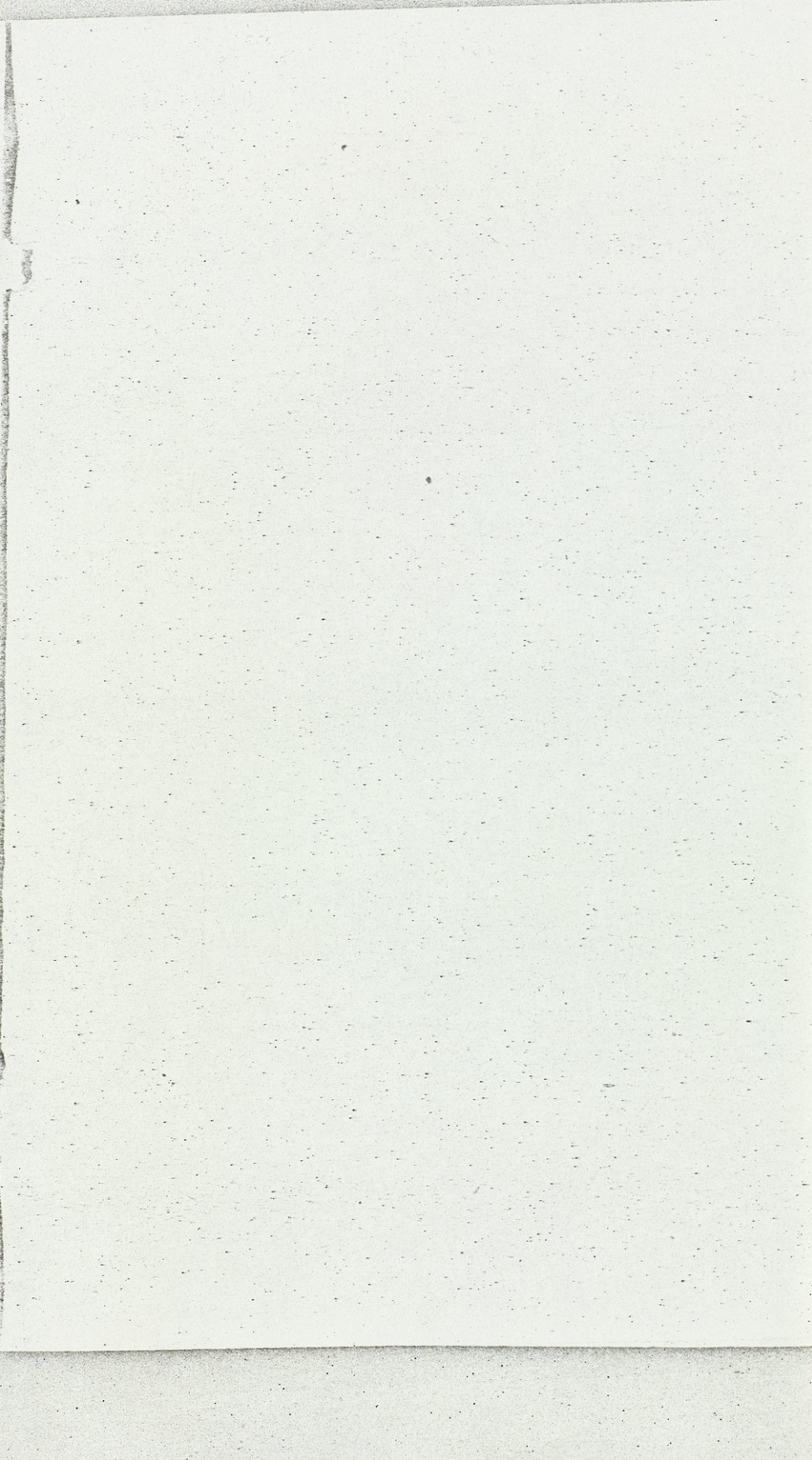
- ١ - شاعر بنى حمدان . (الطبعة الثانية - مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٢ م).
- ٢ - رفاة الطوطوى بك . (مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٠ م) .
- ٣ - من بلاغة القرآن . (مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٠ م) .
- ٤ - مأمون بن أيوب . (مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٣ م) .
- ٥ - الحياة العقلية ، في عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام . (مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٢ م) .
- ٦ - الحياة الأدبية ، في عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام . « تحت الطبع » .
- ٧ - عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام . (يتناول الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والحربية) . « تحت الطبع » .

(ب) تحقيق :

- ١ - ديوان المعتمد بن عباد . (بالاشتراك) - المطبعة الأميرية سنة ١٩٥١ م .
- ٢ - ديوان أسامة بن منقذ . (بالاشتراك) - المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٣ م .
- ٣ - المطرب من أشعار أهل المغرب (بالاشتراك) - المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٣ م .
- ٤ - ديوان القاضي الفاضل . « تحت الطبع » .
- ٥ - الدر النظيم ، من ترسل عبدالرحيم . « تحت الطبع » .
- ٦ - شعر طلائع بن رزيك « تحت الطبع » .
- ٧ - البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ . (بالاشتراك) . « تحت الطبع » .

(ج) ترجمة :

- ديوان المتنبي في العالم العربي ، وعند المستشرقين .
 (القسم الثاني من كتاب المتنبي ، للمستشرق : الدكتور بلاشير) .
 (مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٢٥) .



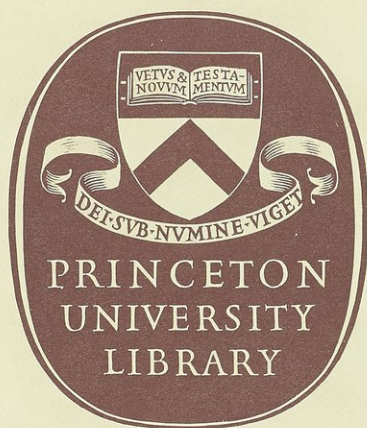
[تم طبع كتاب « مأمون بن أيوب »
في مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة في يوم
الثلاثاء ٢ من رجب ١٣٧٢ الموافق (١٧ من
مارس ١٩٥٣) . والحمد لله أولاً وآخراً]

سيد محفوظ كمال
الدير الفني للطباعة



*Restored through
a grant from*

The Cartwright Foundation



Princeton University Library



32101 074446210